ملحق بالهلال ٦ من سنة ٣٥

حرية الفكر

وأبطالها في التاريخ

وهو قصة الحرية الفكرية وانطلاق العقل البشري من قيود التقاليد وفوز التسامح على التعصب مع ذكر ما لقيه الاحرار من ضروب الاضطهاد من أقدم العصور للآن

تأليف

سلامه موسى

عنيت بنشره

ادارة الهلال بمصر

سنة ١٩٢٧

حرية الفكر

وأبطالها في التاريخ

وهو قصة الحرية الفكرية وانطلاق العقل البشري من قيود
التقاليد وفوز التسامح على التعصب مع ذكر ما لقيه الاحرار
من ضروب الاضطهاد من أقدم العصور للآن

تأليف
سلامه موسى

عنيت بنشره
ادارة الهلال بمصر
سنة ١٩٢٧

مصادر الكتاب

هذه الكتب الآتية قد رجعنا اليها واقتبسنا منها . ونحن نذكرها هنا لكي نستغني عن ذكرها في مواضع الاقتباس . ويمكن القارىء الراغب في التوسع أن يعود اليها :

ابن رشد وفلسفته لفرح انطون
الاخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك
الجمعيات السرية للاستاذ محمد عبد الله عنان
نفح الطيب للمقري
عمدة الصفوة في حل القهوة لعبد القادر الانصاري
الملل والنحل للشهرستاني
الفرق بين الفرق لابي منصور البغدادي

Van Loon : Tolerance

Voltaire : Tolerance

J. B. Bury : Freedom of Thought

J. Needham : Science, Religion and Reality

W. E. H. Lecky : Rise & Influence of the Spirit of Rationalism in Europe

J. M. Robertson : Short History of Freethought

Tom Paine : Common Sense

وأيضاً الموسوعات الكبرى مثل الموسوعة البريطانية وغيرها .

شهوة التطور

لم نسمع قط ان انسانًا تقدم للقتل راضياً أو كدّ نفسه حتى مات في سبيل أكلة شهية يشتهيها أو عقار يقتنيه . وانما سمعنا ان ناساً عديدين تقدموا للقتل من أجل عقيدة جديدة آمنوا بها ولم يقرهم عليها الجمهور او الحكومة . وسمعنا ايضاً عن ناس ضحوا بأنفسهم في سبيل اكتشاف أو اختراع

فما معنى ذلك ؟ معناه أن شهوة التطور في نفوسنا أقوى جداً من شهوة الطعام او اقتناء المال . وأن هذه الشهوة تبلغ من نفوسنا أننا نرضى بالقتل في سبيل ارضائها واننا لا نقوى على انكارها وضبطها . فالحياة من دأبها التحول من أدنى الى أعلى والتجدد باكتساب عناصر مما حولها وتنفية بعض ما فيها مما هي في غنى عنه . ونقول بعبارة أخرى ان من دأبها التطور . فاذا وجدت أن انظمتنا الاجتماعية قد سدّت عليها أبواب التطور فانها لا تنفك تحاول فتحها أو تموت دونها راغبة في ما هو ارقى منها

والجمود هو طبيعة المؤسسات الاجتماعية بينما التطور هو طبيعة الحياة فاذا اتسعت الهوة بينهما عمدت الحياة الى الخروج والثورة والتحطيم .

وهذا هو معنى استشهاد الانبياء والعلماء والفلاسفة وغيرهم في سبيل آرائهم الجديدة التي ينشرونها على الناس . فسقراط يشرب السم راضياً لانه يشعر أن شهوة التطور التي تنزع به الى العلا أقوى من شهوة البقاء . والمسيحيون يرضون بأن تأكلهم السباع في ملاهي الرومانيين ويؤثرون هذا القتل المرعب على البقاء جامدين راضين بديانة الآباء . والعالم يقعد أمام بوتقته يحاول اكتشاف حقيقة علمية قد بصر بها قلبه فيكدح راضياً بالجهد والفقر والموت حتى يبلغها . وكل هؤلاء آلات تستعملهم الحياة لاغراضها العليا وتحقق بهم ناموسها العظيم وهو التطور

وليس الاضطهاد الذي اصاب حرية الفكر والاستشهاد الذي رضي به الاحرار سوى صراع اصطرع فيه الجمود والتطور . جمود القاعدة الاجتماعية مع تطور الحياة . والفوز على الدوام للتطور على الجمود

التسامح

قصة رمزية

كان ابناء القرية يعيشون هانئين في وادي الجهل السعيد.
وحولهم من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب قد ارتفعت هضاب التلال الدائمة

وكان مجرى المعرفة الصغير يسير هوناً في أخدود عميق بال وكان يتبدد عندما يبلغ البطائح والمناقع

ولم يكن شيئاً يذكر اذا قيس الى الأنهار ولكنه كان يكفي القرويين حاجاتهم الوضيعة

وفي المساء عند ما كانوا يسقون ماشيتهم ويملأون جرارهم كانوا يقنعون بالجلوس ويتطعمون الحياة

وكان « الكبار العارفون » يحضرون من زواياهم المعتمة حيث كانوا يقضون نهارهم في التأمل في صفحات خفية من كتاب قديم

وكانوا يغمغمون بكلمات غريبة لاحفادهم أولئك الذين كانوا يؤثرون على غمغمتهم اللعب بالحصا المجلوب من بلاد بعيدة

ولم تكن هذه الكلمات في كثير من الاوقات واضحة

ولكن كان قد كتبها قبل الف عام شعب مجهول . ولذلك كانت هذه الكلمات مقدسة

ولان الناس في وادي الجهل كانوا يقدسون كل شيء قديم فأولئك الذين كانوا يتجرأون على معارضة حكمة الآباء كان جميع الناس الابرار يتجنبونهم

وهكذا عاشوا في سلام

وكان الخوف يلازمهم يتساءلون على الدوام : ماذا يحدث إذا نحن حُرمنا من الاشتراك في خيرات الحقل ؟

وكانت تتلى عليهم في همس عندما يخيم الظلام في أزقة قريتهم الصغيرة قصص غامضة المعنى عن الرجال والنساء الذين تجرأوا على أن يشكوا ويسألوا

وكان يقال أنهم ذهبوا ثم لم يعودوا

وكان يقال أن عدداً قليلاً حاولوا أن يتسلقوا الهضبة التي تحجب عنهم الشمس

ولكن هذه عظامهم البيضاء مطروحة عند سفح الهضبة

وجاءت السنون ومرت السنون

وعاش ابناء القرية في وادي الجهل الامين

* * *

ثم من الظلام أقبل انسان

وكانت أظافر يديه قد تمزقت

وكانت قدماه ملفوفتين بالخرق وهي حمراء قد تلطخت بالدم بعد مشاق السير الطويل ووقع على عتبة الباب لاقرب كوخ اليه وطرق الباب

ثم أغمي عليه فحملوه في ضوء شمعة مرتجف إلى سرير وفي الصباح تعالم الناس كلهم في القرية « انه قد عاد »

ووقف الجيران حوله وهم يهزون الرءوس . وكانو يعرفون من قديم أن هذه هي الخاتمة

كانوا يعرفون أن الهزيمة والتسليم ينتظران اولئك الذين يتجرأون على الخروج عن سفح الجبل

وفي إحدى زوايا القرية قعد « الكبار العارفون » يهزون رءوسهم وينطقون بكلمات من نار

ولم يكونوا يميلون الى القسوة ولكن الناموس ناموس . ولقد خالف هذا الرجل وأخطأ في معارضة رغبات هؤلاء « الكبار العارفين »

والآن تجب محاكمته عندما تبرأ جروحه

وكانوا يرغبون في محاكمته باللين

وكانوا يتذكرون عين امه وكان فيها لمعة غريبة كأنها تحترق . وتذكروا أيضاً المأساة التي وقعت بابيه اذ ضل في الصحراء قبل ثلاثين سنة

ولكن الناموس هو الناموس ويجب الخضوع له وعلى « الكبار العارفين » ألا يفوتهم ذلك

وحملوا هذا السائح الى السوق ووقف حوله الناس وهم في صمت الوقار

وكان لا يزال مضعضعاً قد أضناه التعب والعطش فأمره « الكبار » ان اقعد

فأبى وأمروه بأن يلزم الصمت ولـكنه تكلم

ثم ادار ظهره الى « الكبار » والتفت الى اولئك الذين كانوا منذ قليل اخوانه

فقال وكأنه يتضرع اليهم : اصغوا اليّ . اصغو اليّ وابتهجوا لقد ذهبت الى ما وراء الجبال وهأ نذا قد وافيتكم منها . ولقد وطئت قدماي أرضاً جديدة . وصافحت يداي أيدي اناس آخرين . ورأت عيناي أشياء عجيبة

« اني حين كنت طفلاً كانت حديقتنا هي كل العالم الذي أعيش فيه

« وكان حول الحديقة من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب هضبات قد قامت منذ بدء الزمن

« وكنت عندما أسأل احداً : ماذا وراء هذه الهضبات ؟ كنت أجاب بهز الرءوس وبالصمت . وكنت إذا ألححت في السؤال أخذوني إلى العظام البيضاء عظام أولئك الذين تجرأوا على تحدي الآلهة

« وكنت أصيح وأقول : هذا إفك . ان الآلهة تحب الشجعان فكان « الكبار العارفون » يأتون إليّ ويقرأون لي من الكتب المقدسة . وكانوا يقولون ان كل شيء في السماء وفي الارض مرسوم بالناموس . وأن هذا الوادي بنص الناموس لنا نملكه ونعيش فيه . لنا حيوانه وزهره وثمره وسمكه نفعل بها ما شئنا . أما الجبال فللآلهة . وما وراء الجبال يجب أن يبقى مجهولاً حتى آخر الزمان

« هكذا كانوا يقولون وكان قولهم كذباً . وقد كذبوا عليّ كما يكذبون عليكم للآن

« الا اني أقول لكم ان في الجبال مروجاً . وهي مروج ممرعة كاحسن ما رأيتم وهناك ناس من دمنا ولحمنا . وهناك مدن تزهى بمجد آلاف السنين

« لقد عرفت الطريق الذي يؤدي بنا إلى وطن أفضل من وطننا هذا ورأيت وعود الحياة السعيدة . فامشوا ورائي وأنا أقودكم فان الآلهة تبتسم هناك كما تبتسم هنا وفي كل مكان آخر »

* * *

ثم سكت . فضج الواقفون وعجوا

وصاح « الكبار العارفون » : زنديق هذه زندقة ورجس . يجب أن يعاقب . لقد جن . انه يحتقر الناموس الذي كتب قبل الف عام . لقد استحق الموت

ثم تناولوا أحجاراً ثقيلة وشدوا عليه رجماً حتى قتلوه

ثم أخذوا جثته فألقوها عند سفح الجبل وخلفوها هناك كي تبقى نذيراً يحذره كل من يشك في حكمة القدماء

* * *

وحدث بعد ذلك بقليل جفاف عظيم . فان مجرى المعرفه الصغير جف وماتت الماشية من العطش وأمحلت الغلات في الحقول وكانت هناك مجاعة عظيمة شملت وادي الجهل كله

ومع ذلك فان « الكبار العارفين » لم يفطنوا : فانهم تنبأوا بانقشاع المحنة لانه هكذا وعدتهم كتبهم المقدسة

ثم هم أنفسهم لم يكونوا في حاجة الى طعام كثير إذ كانوا قد طعنوا في السن

* * *

ووافى الشتاء فهجر الناس القرية . وهلك نصف السكان لقلة الطعام

ولم يكن ثمّ رجاء لاولئك الذين لم يموتوا إلا في ما وراء الجبال

ولكن الناموس كان يقول « لا » ويجب الخضوع للناموس

* * *

وفي احدى الليالي حدثت ثورة

وابتعث اليأس الشجاعة في اولئك الذين كان الخوف قد أسكتهم

واحتج « الكبار العارفون » احتجاجاً ضعيفاً

فنحوهم عنهم . وشكا هؤلاء حظهم وصاروا يندبون ولاء أبنائهم

ولكنهم عندما رأوا آخر مركبة تنقل آخر السكان وقفوها وركبوها

وشرع في السير الى المجاهل

* * *

وكانت قد مضت الآن سنون عدة على رجم ذلك السائح الجرىء

ولم يكن من الهين أن يهتدو الى الطريق التي أخبرهم عنها

فهلك منهم كثيرون جوعاً وعطشاً قبل أن يجدوا أول معالم الطريق

ومن هناك تمهدت الطريق وقلت مشاقها

وكان ذلك المرجوم قد أعلم طريقاً لبني وطنه في وسط الغابات والصخور

وأدت الطريق في النهاية الى مروج نضرة

وعندئذ أخذ الناس ينظر بعضهم الى بعض وهم سكوت وقالوا :

« لقد كان على صواب وحق وكان « الكبار العارفون » على خطأ وباطل »

« لقد صدق وكذبوا

« ان عظامه بالية عند سفح الجبل ولكن هؤلاء « الكبار » يقعدون الآن في مركباتنا وينشدون أناشيدهم العتيقة

« انه أنقذنا ونحن ذبحناه

« وانا لنأسى على ما حدث ولكننا ما كنا ندري ... »

ثم اطلقوا خيولهم وثيرانهم في المراعي وابتنوا لانفسهم منازل وزرعوا الحقول وعاشو سعداء دهراً طويلا بعد ذلك

* * *

وبعد سنين حاولوا أن يدفنوا ذلك المرجوم في البناء الشامخ الذي كان خاصاً بسكنى « الكبار العارفين »

فسار موكب يحفه الوقار الى ذلك الوطن المهجور فلما بلغوا المكان الذي القيت فيه جثته لم يجدوا رفاته هناك

فان واحداً من بني آوى قد جره إلى جحره

فوضعوا عندئذ حجراً صغيراً في أول الطريق الذي هداهم ونقشوا عليه اسم ذلك الرجل الذي تحدى قوى الظلام والجهل حتى يفتح لقومه طريق الحرية . وقالوا في نقشهم ان الخلف قد أقام هذا الأثر برهاناً على شكرانه

* * *

وكما كان في البدء . كذلك هو الآن . ولكنه سوف لا يكون كذلك المستقبل .

(مترجمة)　　　　　　　　هندريك ويلم فان لون

اسباب التعصب

قد يظن القارىء أن المفكر ما دام يفكر فقط يكون تفكيره حراً لا يمكن أحداً أن يدخل الى ذهنه ويسوقه عن التفكير في أية ناحية يريد . ولكن الواقع أن التفكير لا يكون حراً طليقاً حتى نستطيع البوح والافضاء به الى غيرنا . لأن الفكرة طاقة (أي قوة) من قوى الذهن لا تزال منحبسة شأنها شأن جميع القوى المنحبسة تعذب الذهن حتى تنصرف بالعمل . والانسان كالحيوان طبع على أن لا يخطر بباله خاطر حتى ينصرف الى عمل وحركة . وجهاز الحيوان العصبي لم يخلق في الاصل الا لخدمة حركات الجسم . وذهن الحيوان عالياً كان أم دانياً في سلم التطور هو جزء من هذا الجهاز . فالخواطر الذهنية هي قوى عصبية اذا حبسناها آلمتنا وعذبتنا وأحيانا تؤدي الى الهوس بل الجنون . وجنون العاشق الذي لا يجد في معشوقته تلبية لعواطفه يرجع الى أن خواطر العشق قد انحبست في ذهنه لا تجد منصرفاً

وكل منا يعرف أن في الافضاء والبوح منفرجاً للصدور وأن همومنا تخف اذا شاركنا غيرنا فيها . والخواطر العلمية أو الفلسفية تؤذي صاحبها وتعذبه اذا لم يجد لها منصرفاً بالبوح بها الى الناس . لأنها تبقى في نفسه كالهم الرابض لا يستريح منه حتى يفضي به الى الناس . فحرية الفكر تقتضي اذن حرية البوح بالقول

ولكن التاريخ يثبت أن معظم الذين باحوا بما في صدورهم مما اعتقدوه حقيقة علمية أو فلسفية أو دينية نالوا من الاضطهاد بالتعذيب أو بالحبس أو بالقتل الشيء الكثير الذي لم يخل منه قرن منذ اكثر من الفي سنة . فما علة ذلك ؟

العلة الاولى ان الناس مطبوعون على الكسل والاستنامة الى ما الفوه من العادات الفكرية والعملية .. فالانسان في أحوال معيشته لا يخترع كل يوم وانما يجري على عادة امسه فيسهل عليه عمله . فاذا ابتدع أحد بدعة جديدة في اللباس أو الطعام أو الغناء أو الشعائر الدينية أو حتى الاسلوب الكتابي فانه يصدمنا لاول وهلة ويكلفنا تفكيراً أو جهداً كنا في غنى عنهما لولا بدعته

العلة الثانية أن المصلحة المالية والمعاشية كثيراً ما تكون متعلقة بالعادات المعروفة فتبديلها يضيع على بعض الطبقات هذه المصلحة . فالغني يكره البولشفية لمصلحة واضحة والقاضي الذي يتناول من المال نحو الف وخمسمائة جنيه كل عام يحكم بالسجن على الخطيب البولشفي ويلذ له النطق بالحكم لأنه لا يرى فيه خصما للعدالة فقط بل خصما لشخصه أيضاً . فالبولشفية بدعة تصطدم بمصالح الاغنياء . ولذلك ليس الناس أحراراً في البوح بافكارهم عنها الآن في معظم أقطار العالم

وعلة ثالثة للتعصب واضطهاد الافكار الجديدة هي الجهل . فان الذي يجهل نظرية التطور ويؤمن بأن ابا البشر آدم وامهم حواء يكره كل من يقول بهذه النظرية الملعونة . والذي يجهل اللغات الاوربية من شيوخنا يكره كل من لا يقول بان اللغة العربية أفصح

اللغات وأشرفها ولا يمنعه من الاضطهاد الا عجزه

وعلة رابعة هي الخوف . فان العجوز مثلاً قد تؤمن بالاولياء والقديسين وتتشفع بهم . ولا يمكن وهي في هذه الحال أن تطالبها بحرية المناقشة في ما يعزى الى هؤلاء الاشخاص من الكرامات لأن خوفها يمنعها من أن تطلق لذهنها هذه الحرية . ومن هنا ايضاً تدرك علة تقييد الحرية مدة الحروب لان الخوف من العدو يزيد وساوس رجال الدولة

وأحياناً تجد هذه العلل الاربع مجموعة بعضها أو كلها في طائفة من الناس . فاذا كان للدولة دين رسمي صار الطعن في الدين أو انتقاده داعية الى تألب طوائف عديدة للذب عنه . منهم العامة الذين يخيفهم خوفهم من الدين على اضطهاد المنتقد . ومنهم الكهنة الذين يخشون على مصالحهم . ومنهم جميع أفراد الامة تقريباً الذين يرون أن السير على سنن السلف ايسر على قلوبهم من ابتداع البدع . لانه يجب ألا تنسى أن الجماعات بحكم بيئتها مطبوعة على الجمود

ولكن البدع تفوز في النهاية لأنها وان كانت تبدأ مع قلة من الامة الا انها لما فيها من ميزات تتغلب على العادات الموروثة . وكل تقدم للانسان مصحوب ببدعة ولولا ذلك لما تم اختراع أو اكتشاف . وكلنا يتألم عند اصطناعنا بدعة جديدة لاول مرة ولكن معرفتنا بفائدتها تجعلنا نرضى بهذا الالم الذي يزول بالاعتياد والرياضة

ونحن الآن في القرن العشرين وقد اوشكت الحرية الفكرية أن تعم العالم المتمدين . ولا يزال بعض الشرقيين يتعصبون ويقتلون الناس من أجل دينهم . ففي كل يوم نسمع عن المسلمين الذين يقتلون

الهندوكيين والهندوكيين الذين يقتلون المسلمين في الهند . ومنذ سنتين قتل الافغان بعض الاحمديين . وحاول بعض الرعاع من الوهابيين في الصيف الماضي أن يقتلوا المصريين في الحجاز . ولكن هؤلاء الناس ليسوا متمدينين وعما قريب ستشملهم المدنية ويعرفون للتسامح قيمته في الرقي . لأنه لا رقي بلا تسامح

وقد ضمن الدستور المصري حرية الفكر والقول وأباح لكل مصري أن يفكر كما شاء . فما أحرانا بان ننظر في تاريخ هذه الحرية التي أريقت من أجلها دماء الوف البشر

الجزء الاول

حرية الفكر في العصور القديمة

الطبو والآلهة

لما شرع الانسان يخرج من الغابة ويزاول الزراعة أخذ يعتقد العقائد عن الارض والسماء وأصل الناس ومصيرهم ودواعي الشؤم واليمن وجلب السعادة لنفسه والاذى لغيره. وكانت عقائده الاولى بعيدة عما نفهمه الآن من الدين. فنحن نفهم الآن من الدين ان الماء يطهر وانه لذلك سبيل الوضوء للمتدين. ولكنه كان يفهم ان الماء أصل النبات وانه غسول يغتسل به الجسم من الاقذار. أي انه بدأ ينظر نظراً علمياً للاشياء نظر الحس والمشاهدة. فلما تقادم الزمن أخذ يتصوف في نظره وينسب للاشياء المحسوسة اغراضاً أخرى. فكان مثلا يعتقد انه اذا أكل الخنزير صار لحم هذا الخنزير في لحمه هو فمن البديهيات الاولى انه يصير هو نفسه خنزيراً. فامتنع لذلك عن أكل الخنزير. وكان في نظره هذا عالماً وان كانت وسائل التحقيق لديه غاية في الضعف. ولكن جاء الخلف فتصوفوا وحرموا الخنزير وبنوا تحريمهم على آراء دينية صوفية

وكان عند الانسان الاول كما لا يزال للآن عند المتوحشين جملة محرمات كلها «طبو». فالخنزير طبو يجب ألا يمس. وبعض الحيوان أو الطيور طبو يحرم قتلها وصيدها. وزوجة الرجل أو زوجاته حلال له طبو لغيره أي حرام على هذا الغير أن يمسهن. وما زلنا

نسمي النساء « حرماً » أي يحرم على غير زوجهن أن ينظر اليهن لانهن طبوٌ له

والطبو أصناف عديدة . ذكرنا منها مثال الخنزير الذي يجب ألا نأكله لئلا يتجسم في جسمنا . فهو لذلك نجس . وقد يكون طائراً تتوهم القبيلة انه أبوها فيجب ألا يقتل رعاية لابوته فعندئذ يسمى طوطماً . وقد يكون ملكا للغير كالنساء يحرمن على غير زوجهن

فالطبو هو أصل الآداب الاخلاقية وهو أيضاً أول قيود الحرية الفكرية . وقد كان في الاصل يعبر عن نظر علمي فج لم ينضج استحال لقلة وسائل التحقيق والعلم الى عقيدة دينية . فلما ارتقت الامم بعض الارتقاء وصارت الى طبقات نشأت فيها طبقة الكهنة السحرة الذين يعرّفون الناس بانواع الطبو . فزادت أنواع الطبو بذلك جموداً وتعدداً لانه انضاف الى قوتها قوة مصالح الكهنة . ولا يزال في العقائد الدينية الفاشية الآن أنواع عديدة من الطبو . فالبقرة في الهند لا تؤكل عند الهندويين . والخنزير كذلك عند اليهود

وأول أنواع الطبو هو « الطوطم » أي طائر أو حيوان أو شجرة يحرم على أفراد القبيلة ان يمسوها أو ان ينظروها أو ان يأكلوا شيئاً منها . وتعتقد القبيلة ان الطوطم هو أصلها الذي تنتمي اليه فله لذلك حرمة . ثم يرتقي الطبو من ذلك الى ان يصير نواهي أدبية تنهي الناس عن بعض الافعال . فوصايا موسى الصحية مثلا هي أنواع من الطبو

وقد يظن البعض ان المتوحش اكثر حرية منا ولكن الواقع انه محوط بانواع عديدة مختلفة من الطبو تقيد فكره وتمنعه من صيد

هذا الحيوان ومن أن ينطق بهذه الكلمة ومن أن ينظر الى هذه الشجرة وهلم جرا . وذلك لانها كلها تقريباً طبو

وعند ظهور الآلهة وانتظام العبادة ازداد الكهنة قوة وجمدت نواهي الطبو . فتقيد فكر الانسان . انما يجب ان نذكر ان الآلهة القديمة لم تكن في قوة آلهة الاديان الحاضرة لانها لم تكن قادرة على كل شيء كما يعتقد الآن المسيحي أو المسلم في إلهه . فكان بين الانسان وبين ربه مجال للفكر في جملة موضوعات لا يستطيع أهل الاديان الحاضرة ان يفكروا فيها ما لم يتناقضوا مع ما ذكرته الآلهة

وخلاصة كلامنا هو :

١ — ان الانسان القديم كالمتوحش الحديث لم يكن حر الفكر لان نواهي الطبو كانت كثيرة

٢ — ان الانسان بدأ ينظر للاشياء التي حوله نظراً علمياً ساذجاً . ولكنه لقلة وسائل التحقيق كان نظره فجاً . فلما تقادم الزمن جمدت آراؤه العلمية فصارت عقائد دينية . فالماء في الاصل غسول يغسل به فلما تقادم الزمن صار يستعمل للطهور والوضوء

٣ — كانت الآلهة القديمة غير قادرة على كل شيء . فكان في عجزها هذا بعض التيسير للحرية الفكرية . وعجزها هذا يرجع الى نظر الانسان العلمي ، لان كل اله قديم كان في الاصل شخصاً حياً . فلما مات بقي من حوله من الاحياء يعتقدون انه حي غائب . لانهم لم يفهموا طبيعة الموت . فلم ينسبوا اليه القدرة على كل شيء لان هذه الصفة التي لا يمكن ان تنسب الى الاحياء لا يمكن أيضاً ان تنسب اليهم بعد غيابهم في ما نفهمه الآن بأنه موت

٤ — لما ارتقى الانسان بعض الرقي خفت سلطة الطبو واستأثر الآلهة بالسلطة واندمج ما تبقى من نواهي الطبو في الديانات الالهية فاتسعت بذلك الحرية الفكرية بعض الاتساع

* * *

وقبل ان نختم هذا الفصل ينبغي ان نؤكد شيئين للقارىء يجب عليه ملاحظتهما في هذا الكتاب : أولهما ان النظر الديني كان في الاصل نظراً علمياً لا شائبة فيه يقبل الجدل والتمحيص وانه صار بعد ذلك نظراً دينياً قائماً على الجزم لقلة وسائل التحقيق عند الانسان الاول ولان طبقة من الناس رأت من مصلحتها ان تروّج العقائد الدينية وتعيش منها . ولذلك كانت المعابد قديماً أمكنة لدارسة العلم وكان الكاهن عالماً

والملاحظة الثانية ان الدين في نفسه لا يمكنه ان يضطهد العلم . وانما الاضطهاد يرجع الى الكهنة . ولكن الكهنة أنفسهم لا يمكنهم أن يضطهدوا أحداً ما لم تكن السلطة في أيديهم . فالذي قيد حرية الفكر والذي اضطهد الناس هي السلطة الحكومية . وما دام الدين بعيداً عن الحكومة فانه لا هو ولا كهنته يمكنهم ان يضطهدوا أحداً . أما اذا صارت الدولة والدين جسماً واحداً أمكن رجال الدين أن يضطهدوا من يشاءون وأن يقيدوا الفكر كما يشاءون . فالاضطهاد الذي كابده الناس في الماضي من رجال الدين انما كابدوه لان هؤلاء الرجال كانوا قابضين على أزمة السلطة في الدولة . ونحن في ما يلي من فصول الكتاب اذا ذكرنا الاضطهادات

الدينية لا نذكرها عيباً على الدين في ذاته بل تقريراً لما يفعله الحاكم متسلحاً بالدين

ورجال الحكم اشغف بالدين واكثر استعمالا له سلاحاً يرهب به الناس من رجال الدين بالحكم . بل ربما نزع رجل الدين الى الزهد ولكن رجل الدولة والحكومة يحتاج الى الدين لكي يستطيع أن يخيف به العامة لان الدين يزيد سلطانه فلا يقصر على هذا العالم بل يمتد الى العالم الثاني . ولذلك نجد أن رجلا مثل مكيافيلي يقول انه يجب على الامير أي الحاكم حماية الدين ولو كان هو نفسه لا يؤمن به لان الدين يعاونه على حكم الجماهير وعلى تثبيت سلطانه

الاغريق والحرية الفكرية

كان الدين عند القدماء أمثال المصريين والكلدانيين مثوى علوم هذه الامم وكانوا قانعين به يفسرون جميع الظواهر الكونية والطبيعية به . وكان عند هذه الامم شيء كثير من العلوم والمعارف ولكنهم لم يضعوها في مكان الاعتراض على الدين . فالبردي الذي ينسب الى الفرعون اهمس مثلا يثبت ان المصريين عرفوا شيئاً عظيماً في الرياضة قبل سنة ١٧٠٠ ق . م . وكذلك الشهور القبطية تثبت المدى العظيم الذي بلغوه في الفلك

وكان في الفرات مراصد في القرن الثامن قبل الميلاد . وقد عرف المصريون شيئاً كثيراً عن التشريح وعن النباتات

فالامم القديمة مارست العلوم ولكنها لم تنزع نزعة علمية ولم تحاول ان تفسر الظواهر الكونية والطبيعية بالعلم وحده دون الدين . وبعبارة أخرى نقول ان هذه الامم لم تصنع « النظريات » العلمية . فكانت علومهم أشبه شيء بعلوم القرون الوسطى في أوربا : مجموعات من المعارف ليس لها خطة عامة ولا غاية نهائية ولا بحث عن اول الكون ونهايته . ولذلك لم يضطهد رجال الدين في هذه الامم القديمة أحداً

أما الاغريق فيشذون عن الامم القديمة بالنزعة العلمية . فهم لم يقتنعوا بجمع المعارف بل وضعوا النظريات . والنظرية هي كل شيء

وأهم شيء في العلم لأن مداها أبعد من المعارف المجموعة وهي في نفسها ضرب من الاقتصاد الذهني يسهل جمع المعارف والاستغناء أحياناً عن بعضها . فالاغريق أول أمة نزعت نزعة علمية . وقد ساعدها على ذلك شيئان :

أولهما : أنها لم تكن تؤمن كاليهود باله واحد قادر على كل شيء اذ كانت آلهتها عديدة وكانت ذات صفات انسانية تنتصر وتنهزم وتعجز عن تحقيق اغراضها ولذلك لم يكن بها السلطان القاهر الذي كان لاله اليهود مثلا على اليهود . فلم يجد العلم حرجاً من أن يفتات أحياناً على حقوق الآلهة وان كان قد ناله شيء من الاضطهاد

الثاني : ان ديانة الاغريق لم تصر في وقت ما شريعة . وذلك لانه اذا كان دينها شريعة التعامل فانه عندئذ يصير جزءاً ملتحماً بالحكومة وبالقضاء فيدمغهما بالجمود ويحول دون حرية الفكر ودون تطور الامة المدني لان التطور هو التبدل والتحول والدين هو غالباً التقاليد التي لا تتبدل ولا تتحول

واول ما نسمع عن النظر العلمي البحت في القرن السادس قبل الميلاد . ففي سنة ٦٤٦ مات طاليس وكان يقول بان اصل العالم ماء . وصدم الدين لاول مرة بقوله ان الآلهة لا شأن لها في خسوف القمر في حرب الليديين والفرس . وان هذا الخسوف ظاهرة جوية مثل سائر الظواهر

وفي سنة ٤٢٨ ق . م مات اناجزاجوراس وهو اول من نعرفه ممن اضطهدهم الدين . فانه كان يعلم تلاميذه بان الشمس ليست مركبة يركبها الآلهة كما تقول الديانة بل هي قطعة من نار وان القمر

يحتوي على جبال . وبحث في المادة الاولى التي يتكون منها الكون بجميع اجرامه وكاد يحدس نظرية التطور فتألب عليه رجال الدين وحبسوه في اثينا ثم نفوه منها فمات في آسيا الصغرى

وهناك رجل آخر يدعى بروتاجوراس مات سنة ٤١٥ ق . م . وهو يعتبر اول انسان ذكره التاريخ صرح بكفره بالآلهة فقد ذهب الى اثينا واخذ ينشر بين الناس آراءه الدهرية وخلاصتها ان الانسان هو المقياس الاصلي لكل شيء في العالم وان العمر اقصر من ان ينفق في البحث عن وجود الآلهة أو عدمه واننا يجب ان نوجه نشاطنا الى تحسين العالم وزيادة متعه . وكانت اثينا تعاني عقابيل حرب طاحنة بينها وبين اسبارطة فلم تكن في حال تسمح لها باغضاب الآلهة . وعلى ذلك قبض على بروتاجوراس وقدم للمحاكمة ولكن هذا الكافر لم يكن يتطعم الاستشهاد في سبيل العلم والحرية ففر من حبسه ونجا بنفسه في سفينة تقصد الى صقلية . وتحطمت السفينة وغرقت وغرق معها

ومنذ ابتداء القرن الرابع قبل الميلاد نرى النزعة العلمية تقوى في بيئة موافقة يتخللها قليل من الاضطهاد الديني . ففي سنة ٤٠٠ او قريباً منها نجد مؤلفاً غير معروف اسمه لنا الآن يؤلف كتاباً عن الفالج فينكر فيه علاقة هذا المرض بالآلهة او الارواح النجسة ويقول انه مثل سائر الامراض : « ينشأ من اشياء تدخل الجسم وتخرج منه مثل البرد والشمس والرياح وهي اشياء دائمة التغير ولا تهدأ »

وفي هذه السنة عينها اخذ ديمقريطس يضع نظرية غايتها الاستغناء عن الالهة في تفسير اصل الكون ونهايته . فرد المواد كلها

الى ذرات . وقال ان العوالم تختلف فهي دائمة النمو والفساد . ونحن الان في عصر النظرية الذرية التي احياها العلماء في القرن الماضي . ولم يذكر التاريخ ان احداً اضطهده لهذه الآراء

وحول هذا الوقت نجد ثلاثة اشخاص لا يزال لاسمائهم روعة وأثر في الثقافة الحاضرة. نعني بهم سقراط وافلاطون وارسطوطاليس.

اما سقراط فيمثل نوعاً من الارتكاس في النظر العلمي فهو الاديب الذي يكاد يعلن كراهتـه للعلم . ومن اقواله انه من العبث « ان يعرف الانسان المعارف لذاتها » وكان يقـول ايضاً بخلود النفس . وان « ضمير الانسان الخفي هو معيـار كل الاشياء او يجب ان يكون كذلك وان الالهة لا تقرر مصيرنا وانما هـذا المصير في ايدينا » ثم كان يختصر الالهة كلها في اله واحد غير منظور. ولم يكن في كل ما قاله سقراط ما يمكن ان يأخذه عليه مؤمن ولـكن السياسة وجدت سبيلاً الى قتله عن طريق فلسفته . فانه كان « معتدلاً » في وقت يتطلب الغلو . فقـد كانت أثينا بين حزبين حزب العظاميين وحزب العصاميين وكان سقراط يتوسط بينهما لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء لانه لم يكن يظن ان الخير كله في احدى هاتين الفئتين . فلما انتصر العصاميون سنة ٤٠٣ ق. م. رأى سقراط انه لن يعامل بتسامح وحضـه اصدقاؤه على الفرار من اثينا فرفض . ولم تكن الا ايام حتى عقد له مجلس مؤلف من ٥٠٠ قاض لمحاكمته على كفره . وقد دافع سقراط عن الحرية دفاعاً مجيداً ما زلنـا نحن في حاجة لان نسمع مثله في القاهرة سنة ١٩٢٦

قال سقراط للمجلس : « ليس على الارض انسان له الحق في

ان يملي على الاخر ما يجب ان يؤمن به او يحرمه من حق التفكير كما يهوى» وايضاً : «ما دام الانسان على وفاق مع ضميره فانه يستطيع ان يستغني عن رضى اصدقائه وان يستغني عن المال وعن العائلة وعن البيت . ولكن بما انه لا يمكن اي انسان ان يصل الى نتائج صحيحة بدون ان يفحص المسائل ما لها وما عليها فحصاً تاماً فانه يجب ان يُترك الناس احراراً لهم الحرية التامة في مناقشة جميع المسائل بدون ان تتدخل الحكومة في مناقشتهم »

وكانت حجج سقراط في دفاعه عن نفسه ورد تهمة الكفر التي اتهم بها قوية الى حد ان خاطبه المجلس في الكف عن تعليم تلاميذه بحيث اذا وعد وعداً صادقاً بذلك فان المجلس يعفو عنه . فكان جواب سقراط على هذه « التسوية » :

« كلا . ما دام ضميري هذا الصوت الهادىء الصغير في قلبي يأمرني بان اسير وأعلم الناس طريق العقل الصحيح فاني سأوالي تعليم الناس وأصرح لهم بما في عقلي بدون اعتبار للنتائج »

ولم يكن بعد ذلك سوى الامر بقتله فقتل وتجرع السم بين تلاميذه ومات مرتاح الضمير هادىء النفس . وتفرق تلاميذه بعد مقتله مرعوبين ولكن لم تمض عشر سنوات حتى عادوا الى روعهم وعادوا يعلمون الناس فلسفته

وقام بعد سقراط تلميذه وراويته افلاطون . وقد وضع افلاطون هذا اول طوبى معروفة في التاريخ مثل فيها السعادة الانسانية في نظام عمراني يختلف عن النظام الذي كان يعيش فيه اختلاف الشيوعية الروسية الآن عن نظامنا . ومع ذلك لم تضطهده

حكومة الآثينيين . وكان افلاطون صوفياً بل هو اول الصوفيين يقول بان شهادة الحس على الحقائق غير صحيحة لأنها دائمة التقلب . فمعرفة الحقائق يجب ان تصدر عن الفكر لا عن الحواس . وقد اعتمد رجال الدين في القرون الوسطى على مذهب افلاطون هذا في مقاومتهم للعلم وتنقص قيمة المذهب العلمي القائم على الحس والتجربة. وانت عند ما تقرأ كتاباً لاحد الصوفيين المسلمين أوالنصارى تجده يعتمد الاعتماد كله على هذا المذهب الذي يقول بان ما ندركه عن سبيل حواسنا ليس كل شيء . وانما هناك أشياء ندركها بذهننا فقط

وجاء بعد افلاطون ارسطوطاليس معلم الاسكندر . ويمتاز ارسطوطاليس عن افلاطون وسقراط بانه عالم لا يشوب ذهنه شيء من « الصوفية » الافلاطونية بل هو أول من فصل الادب من العلم عند ما الف كتاب « التاريخ الطبيعي » وتتلخص آراء ارسطوطاليس من حيث النظر العلمي في ما يلي :

١ — ان المادة دائمة غير مخلوقة ولا تفنى

٢ — ان اصل المادة أربعة عناصر وهي الماء والهواء والتراب والنار

٣ — ان الارض كرة وهي مركز الكون

٤ — ان النجوم والكواكب تدور حول الارض

٥ — الكون محدود

وكانت كل هذه الآراء تعارض العقائد الدينية عند الاغريق ومع ذلك لم يجد حرجا في اذاعتها . بل كان هو يصرح بان الآلهة

لا تستطيع أن تخالف النواميس الطبيعيـة . وقد كانت آراء ارسطوطاليس مادة الفلسفة والجدل نحو الفي سـنة عند العرب والافرنج . ولـكن روح ارسطوطاليس وهي روح التجربة والاختبار الحسي لم تعم العـالم الذهني في اليونان . فان مدرسة الاسكندرية كانت تنزع نزعة علمية ولـكنها كانت نزعة نظرية غير قائمة على الاختبار والتجربة . وكان لأفلاطون أثر كبير فيها . فاننا اذا عزونا نظريات اقليدس وارخميدس الى روح ارسطوطاليس فاننا نجد روح أفلاطون قوية كل القوة في فيلو الفيلسوف اليهودي الاسكندري الذي وُلد سنة ٢٠ ق. م. فانه اعتمد على فلسفة أفلاطون وجعل الله مبدأ غير محسوس لا يمكن أن يتسم بصفات أو تنسب اليه عواطف على النحو الذي نراه مشروحا في رسالة « حي بن يقظان » لابن طفيل . ولـكن فلسفة أفلاطون كان من أثرها أنها اكبرت من شأن الروح وصغرت من شأن الظواهر الحسية . فكانت بذلك اداة تعاون الدين وتؤخر العلم . تعاون الاول بما تدّعيه من الاستغناء عن الحواس في ادراك ماهية الروح أو الله وتؤخر الثاني بتصغيرها شأن الحواس والتجارب وهي لازمة لتقدم العلوم

فمنذ سنة ٤٠٠ ق . م . الى سنة ١٦٠٠ بعد الميلاد كان العلماء عند العرب وعند الافرنج ينزعون نزعة أفلاطون ويقبلون جميع آراء ارسطوطاليس دون أن ينزعوا نزعته . وقد نزع العرب نزعة علمية في أواخر أيامهم . ولـكن هذه النزعة لم يوحها اليهم فلاسفة اليونان وانما كانت ترمي الى البحث عن الذهب واحالة العناصر فاداهم هذا الخيال الـكاذب الى أن يعثروا في طريقهم على جملة أشياء ذات قيمة

علمية . ولكنك اذا رجعت الى الكتب الدينية والصوفية عند الافرنج والعرب في القرون الوسطى تجدها كلها ترجع الى أفلاطون فهذا الجدل الذي تراه في حقيقة الله والنفس يرجع الى البذرة التي طرحها أفلاطون عند ما فصل الذهن من الحواس

ولكن أفلاطون وارسطوطاليس وفيلو الاسكندري وأرخميدس واقليدس كلهم وطائفة كبيرة اخرى عاشوا في ظل الحرية الفكرية الاغريقية . ولم يكن يتحرج أحد منهم في ابداء رأيه . ولسنا ننسى أن ارسطوطاليس فرّ من اثينا عند ما علم بموت الاسكندر ولكن فراره كان قائماً على الظروف السياسية . وربما خشي مع ذلك أن يتعلل عليه الاثينيون بعلل فلسفية . ولكن الروح السائدة في تاريخ الاغريق القدماء هي روح التسامح البالغ . فرجل الذهن الذي يعيش الآن في القاهرة سنة ١٩٢٧ قد كان يجد اروح لذهنه ان يعيش في اثينا قبل ٢٥٠٠ سنة أو في الاسكندرية قبل الفي سنة لما كان يجد في هاتين البلدتين من روح التسامح التي قد لا نجدها نحن الآن

المسيحية والحرية الفكرية

سبق ان قلنا ان الدين في ذاته لا يمكن أن يضطهد وانما الذي يضطهد هو السلطة الممثلة في الدين أو المستعينة بالدين . فهناك طائفة من اناس تضطهد الناس باسم الدين . وقد تكون هـذه الطائفة من رجال السياسة أو من رجال الدين . وأنت عند ما تقرأ الانجيل تجد أن المسيح لم يكن يقصد الى وضع نظام كنسي جـديد له كهنة وحكومة وان المسيحي الصادق في نظره هو ذلك الذي يدخل غرفته ويصلي لربه بعيداً عن أعين الناس . والحق أن لهجة المسيح كلها توهم القارىء انه كان يعتقد أن يوم القيامة قد أزف فليس هناك ما يدعو الى ايجاد نظام وحكومة وانما يجب على الناس أن يتهادنوا ويعيشوا معاً بسلام هذا الوقت القصير قبل أن يُنشر الناس وينصب الميزان . ولـكن المسيحية نشأت في حضن اليهودية وعاشت مدة غير قصيرة والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهوداً لهم مذهبهم الخاص . ولذلك جرت المسيحية في نظامها على ما رأت من النظم اليهودية فصار لها كهنة . وكان هؤلاء الـكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة مدة الف عام تقريبا . فالـكنيسة اضطهدت العلماء . والمسيح الذي كان يطلب من المسيحي أن يدخل غرفته ويقفل على نفسه ويصلي لم يفكر قط في انشاء كنيسة واقامة كهنة عليها . وانما جاءت هـذه الفكرة من بولس . فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الاول الميلادي هي

مسيحية بولس وليست مسيحية المسيح . ونقول بعبارة اخرى أن الدين للمسيح وأن الكنيسة لبولس وأن الدين إذا كان قد عاق العلم أحياناً ببعض عقائده فان الكنيسة هي التي اضطهدت العلماء

وقبل أن نعرض للاضطهاد الديني يجب أن نعرف هنا العلل التي يرجع اليها نجاح المسيحية دون الاديان التي كانت تحوطها والتي كانت أقوى منها وكانت تستند الى قوى كبيرة عند ظهور المسيحية

١ — فأول ما يجب ذكره انه عند ظهور المسيحية كانت الثقافة الرومانية والاغريقية قد ضعضعت الآلهة وأزالت من النفوس ما كان لها من حرمة واستعد الناس للايمان باله واحد

٢ — لما استبحر العمران وانتشرت الحضارة الرومانية والاغريقية والمصرية تداخلت الاديان وصارت العقائد الخاصة باحدها تدخل في الآخر . وعند ما كثرت المهاجرات زاد هذا التداخل . ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت في تلك الاديان . وما زلنا نحن المصريين نعرف في المسيحية فكرة الثالوث : الاب والابن والروح القدس . وانها هي الفكرة التي كانت فاشية عند المصريين باسم أوسوريس وايسيس وهورس . وقد يسر هذا التداخل على الناس الايمان بالدين الجديد

٣ — الديانة المسيحية هي ديانة البر والتسامح والغفران . وهذه كلها فضائل يقدرها الفقير اكبر تقدير وان كان الغني القادر لا يبالي بها كثيراً لان نفعها يعود على الفقير . وقد كان الفقر من نصيب

تسعة أعشار سكان الامبراطورية الرومانية ولذلك انتشرت بينهم المسيحية

٤ — كان من الممكن ان يؤمن الناس باليهودية دون المسيحية لان لكل منهما إلهاً واحداً . انما كانت تمتاز المسيحية من اليهودية من حيث انها كانت تقبل جميع الناس بخلاف اليهودية التي كانت تقصر الدين الموسوي على اليهود كأنهم شعب الله المختار . وقد بدأت المسيحية تفشو كأنها مذهب خاص من مذاهب اليهودية ولم يكن بين المؤمنين بها أولا سوى اليهود ولكن بولس أخرجها من هذه الحظيرة الضيقة وجعلها ديناً عاماً لجميع الناس ولقي في عمله هذا عنتاً كبيراً من اليهود

٥ — بقيت الكنيسة المسيحية ضعيفة حتى انتقلت عاصمة الامبراطورية من رومية الى القسطنطينية . فانفرد عندئذ بابا رومية بسلطان كبير لم يكن له مدة وجود الاباطرة في رومية

اضطهاد الرومانيين للمسيحية

كان الروماني مفطوراً بطبعه وتربيته وجغرافية امبراطوريته على التسامح. فلم يكن يعارض المصريين أو الاغريق أو الالمان في ممارسة أديانهم ما دامت هذه الاديان لا تنكر سلطان رومية

ولكن المسيحية كانت تنكر هذه السلطة. فكان الشاب الروماني يرفض الانخراط في سلك الجندية لان المسيحية تنهاه عن مقاومة الشر بالشر. ولم يكن سلطان رومية قائماً الا على قوتها الحربية التي اذا نزعزت لم يبق لهذا السلطان من اثر. فيمكننا الآن أن نتصور مقدار الحنق الذي كان يشعر به وال في أفريقيا او اسبانيا او سوريا عندما كان يرى أمامه شاباً رومانياً قوي العضل متين البنية يقف أمامه ويرفض اخماد فتنة تهدد الدولة بالخطر العظيم لانه ينتمي الى جمعية صغيرة تدعى جمعية المسيحيين تأمر أعضاءها بألا يمتشقوا حساماً ولا يدخلوا في حرب. وكان مثل هذا الوالي يبحث بالطبع عن الكتاب الذي يحتوي على عقائد هؤلاء المسيحيين فيقرأ الانجيل فيجده ينطوي على الثورة على الاغنياء والاقوياء والمتسلطين. وكان يقرأ في « الرؤيا » وصفاً للمدينة الفاجرة القائمة على التلال أو الجبال السبعة. ثم يجد اللعنات المتوالية تصب على رؤوس الكفار فلا يفسر لنفسه كل ذلك الا بان المدينة هي رومية وبان الكفار المتسلطين هم الرومانيون. ثم كان العامة يرون هذا الدين الجديد

يندس بينهم وخاصة بين العبيد الفقراء الذين كانوا يرون منهم من احتقارهم لاصنامهم ما كان يثير غيظهم . فكان من ذلك كله أن قام في ذهن رجال الدولة ان يقمع هذا الدين الجديد لانه ينافي مصالح الدولة وبدأ الاضطهاد من ذلك الوقت . ولم يكن الاضطهاد من الدولة وحدها بل كان من الامة أيضاً فانه عندما احترقت رومية في عهد الوغد نيرون حمل العامة على المسيحيين فأثخنوهم قتلا وأعملوا التدمير في بيوتهم بحجة أنهم هم الذين أشعلوا النار لتخريب رومية

ولا يمكن أن يعرف عدد الذين قتلوا باضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين فالاغلب انهم لا يزيدون عن بضعة آلاف في جميع أنحاء الدولة من انجلترا الى العراق ومن المانيا الى مصر . والسنة القبطية يبتدىء تاريخها باضطهاد دقلديانوس للمسيحيين مما يدل على الأثر الكبير الذي تركه هذا الاضطهاد في نفوس الاقباط . ولكن ليس هناك ما يدل على ان الاقباط الذين قتلوا في هذه الاضطهادات يزيدون عن بضع مئات . فان القاضي الروماني لم يكن يدرك شيئاً من المسيحية سوى ما كان يتعارض فيها والسلطة الرومانية فكان يقنع بأوهى اعتراف بهذه السلطة لتبرئة المسيحي في العهد الاول لظهور المسيحية . ثم لما زاد عدد المسيحيين زاد الاضطهاد فصارت الدولة تقتفي آثارهم وتكبسهم في معابدهم وتقدمهم طعاماً للوحوش في الملاهي الكبرى . وقد اشتهر بالاضطهاد للمسيحيين امبراطور يدعى دقلديانوس مات سنة ٣١٣ وأخفق في ادارة الدولة اخفاقاً تاماً حتى خلع نفسه عن العرش وذهب يزرع الكرنب في دلماطيا . ولم تكن مسألة المسيحيين الا احدى المسائل العديدة التي عالجها ولم يستطع

حلها. ولنضرب مثلا على عجزه بمسألة أخرى . فان كثرة الضرائب على اصحاب الارض جعلتهم يهجرون أرضهم ويقبلون على المدن للاقامة فيها وتعلم صناعاتها . فبدلا من أن يخفف عنهم الضرائب التي يفرون منها شرع للدولة شرعة جديدة تقتضي ألا يعمل أحد عملا لم يعمله أبوه وأن يقتصر كل انسان على الصناعة التي كان يعملها هذا الاب بصرف النظر عن كفايته في أية صنعة أخرى . فكان النجار يؤخذ ويرد الى الارض لان أباه كان فلاحاً. وكان البناء يؤخذ من صناعته ويرد الى الحدادة لان أباه كان حداداً . وهلم جرا . وقد أحدثت هذه الشرعة ارتباكا عظيما في الدولة يشبه ما كانت تحدثه مراسيم الحاكم بامر الله في مصر

ورأى دقلديانوس في السنة التي مات فيها بعد أن ترك عرش الدولة بنحو ٧ سنوات ان المسيحية قد صارت ديناً معترفاً به من امبراطور الدولة قسطنطين . فكان يزرع الكرنب ويفكر في هذا العالم العجيب كيف يصبح دين بعد كل هذه الاضطهادات التي أوقعها هو بالمؤمنين به دينَ دولة يقضي على كل الاديان التي سبقته . والحق أن دقلديانوس كان قبل أن ينزل عن العرش قد رأى أن خطة القمع لا تجدي نفعاً وأن الاستشهاد تربة خصبة يتضاعف حصيدها سنة بعد أخرى . ولذلك نشر في جميع أنحاء الامبراطورية منشوراً أذن فيه للمسيحيين بممارسة دينهم قال فيه : « لقد كنا نود بصفة خاصة أن نرد الى سنة العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المخدوعين الذين جحدوا الديانة والشعائر التي أوجدها السلف ثم افتاتوا على القدماء وأزدروا بهم واخترعوا قوانين وآراء اسرفوا فيها

بمقدار ما سمحت لهم مخيلتهم . ثم أنشأوا جمعية مؤلفة من الاقاليم المختلفة في امبراطوريتنا . وبما أن المراسيم التي أذعناها بغية تحتيم عبادة الآلهة قد عرّضت كثيرين من هؤلاء المسيحيين للخطر والكوارث . وبما أن كثيرين منهم قد قتلوا وكثيرين ايضاً ممن لا يزالون مصرين على جنونهم الكفري قد حرموا من ممارسة دياناتهم ممارسة علنية فقد رأينا أن نبسط لهؤلاء التعساء ثمرة تسامحنا. ولذلك نرخص لهم بممارسة آرائهم وبالاجتماع معاً في معابدهم بدون خوف أو مضايقةوذلك بشرط محافظتهم على قوانين البلاد وحكومتها واحترامهم لها »

ومنذ ذلك الوقت أخذ الفقراء يدخلون في الدين أفواجاً في جميع أنحاء الامبراطورية وصارت المعابد والاصنام تهدم . ولم يحافظ على الوثنية سوى الاشراف والسادة في المدن الكبرى . وحوالي سنة ٤٠٠ أمر الامبراطور جراتيان بهدم تمثال النصر من« السنات » أي مجلس الشيوخ في رومية لان الاعضاء المسيحيين كانوا يتأذون برؤية هذا التمثال واحتج الاعضاء الوثنيون ولكن احتجاجهم لم يؤد الا الى نفي بعضهم من رومية

وانعكس مجرى التيار فصار الامبراطرة يضطهدون الوثنيين بعد ان كان أسلافهم يضطهدون المسيحيين . ولكن هذا الاضطهاد لم يدم طويلا ولم يبلغ من الحدة ما بلغته الاضطهادات السابقة لسببين : أولا ان الوثنيين كانوا من السادة أرباب الحكم . والثاني ان هؤلاء الوثنيين عند ما رأوا ان ابواب الشرف والسيادة قد انفتحت في الكنيسة لم يتوانوا عن ولوجها والتمتع بامتيازاتها

وفي هذا الوقت نجد اشراف الرومانيين يدافعون عن حرية الرأي بحماسة لم يعرفوها مدة اضطهادهم للمسيحيين فكان منهم سياخوس الذي مات سنة ٤٠٥ يقول في الدفاع عن حرية الرأي :

« لماذا لا نعيش نحن الوثنيين مع جيراننا المسيحيين في سلام ووفاق ؟ فكلانا ينظر الى نجوم واحدة وكلانا على سفر في هذا الكوكب وكلانا يعيش تحت سماء واحدة . فهل من المهم أن نعرف الطريق التي يختارها كل فرد لبلوغ الحقيقة ؟ »

ومنهم تيمستينوس فانه رأى ان الامبراطور فالنس (مات سنة ٣٧٨) قد انضم لطائفة مسيحية على طائفة أخرى . وكان هو نفسه وثنياً يؤمن بديانة آبائه . فقدم اليه هذه النصيحة الغالية :

« ان هناك ميداناً لا يمكن الحاكم ايًّا كان ان يمارس فيه سلطانه وهذا هو ميدان الفضائل وخاصة عقائد الشخص الدينية . فان الاجبار هنا لا يثمر سوى النفاق والتمذهب بمذهب ما لا يقوم الا على الغش فخير للحاكم أن يتسامح مع جميع العقائد لانه بالتسامح يمكن تجنب النزاعات المدنية . والتسامح زيادة على ذلك ناموس مقدس . فان الله نفسه قد ابدى رغبته واضحة في ان تكون لنا عدة اديان . والله وحده قادر على أن يميز بين الطرق التي يتبعها الناس لكي يدركوا الحقائق الخفية الربانية . وانه ليسر الله أن يرى تعدد الطرق التي يعبر عن الولاء له بها . فهو يحب أن يرى المسيحي يمارس شعائره بينما اليوناني أو المصري يمارس كل منهما شعائر أخرى »

ولكن كل هذا الكلام ذهب هباءً وابتدأ المسيحيون يضطهدون المسيحيين بهمة لا تعرف الكلال ومضوا على ذلك نحو الف سنة .

فكانت الكنيسة الارثوذكسية في الشرق منقسمة طائفتين تقتتلان في الاسكندرية وفي كل بلدة كبيرة . وكان الكاثوليك في الغرب يقاتلون الارثوذكس في الشرق كما يقاتلون المسلمين . ثم ظهر بعد ذلك البروتستانت فدارت المعارك بينهم وبين الكاثوليك مدة طويلة أيضاً

آخر التسامح : يوليانه وهيباطية

القرن الرابع هو القرن الذي يفصل بين عصرين قديمين كلاهما مخالف للآخر بل كلاهما نقيض للآخر . فقبل هذا القرن نجد نحو ٨٠٠ سنة من التفكير الحر الجريء في الأدب والسياسة والعلوم والفلسفة تعيش كلها في ظل الوثنية تسيطر عليها جوقة من الآلهة تتسامح أحياناً في الآراء الجديدة وأحياناً تعجز عن مقاومتها . في سنة ٤٠٠ ق . م . مثلا نجد محاولات عديدة في اليونان غايتها اثبات وجود نواميس طبيعية للعالم لا تستطيع الآلهة أن تخالفها . وفي سنة ٢٠٠ بعد الميلاد نجد أن جالينوس الطبيب الخاص لمرقس اورليوس الامبراطور الروماني يقول ايضا بالنواميس الطبيعية ويصرح بانكار المعجزات من الانبياء أو من الآلهة . ولكن بعد القرن الرابع نجد أمامنا نحو الف عام سادت فيها الكنيسة المسيحية وزالت النزعة العلمية وانقطع البحث في العلوم والسياسة والآداب واقتصر الدرس على التوراة والانجيل وعلى قليل جداً من الكتب الاغريقية وعلى شيء كثير من الكتب اللاتينية

ولسنا نعني بذلك أن الكنيسة كانت السبب الوحيد في اخماد حركة الذهن الانساني في القرون الوسطى . فان غارات القوط والوندل والمجر والبلغار والهون كانت سبباً آخر لهدم كيان الامبراطورية ونشر الفوضى فيها . والعلوم والآداب من ثمار الحضارة

والسلام . وهذه الغارات وتوحش القائمين بها قطعت الصلة بين علوم الاغريق وبين الاوربيين في القرون الوسطى . فلم تكن الكنيسة تمنع الناس من التفكير الحر بمقدار ما كان يمنعهم جهلهم هم أنفسهم

فماذا كان يدرس اذن أهل القرون الوسطى ؟ كانوا يدرسون الشروح والمعلقات على الكتب اللاتينية وعلى الانجيل والتوراة وعلى كتابين أو ثلاثة من الاغريق القدماء . والشرح يليه شرح ثم شرح الشرح يليه شرح آخر على النحو الذي يرى الآن في بعض الكتب العربية القديمة

والآن يجب أن نشيع الحرية الفكرية في العصر القديم بعرض بعض حوادث القرن الرابع . ويحسن بنا لكي ننقل للقارىء نفس هذا القرن أن نترجم بحياة اثنين من عظمائه هما يوليان الامبراطور الكافر وهيباطية الفتاة الفيلسوفة بمدرسة الاسكندرية

كان يوليان ابن اخت قسطنطين الامبراطور الروماني الذي جعل القسطنطينية عاصمة الدولة والذي جعل المسيحية ديناً للدولة . وولد يوليان هذا سنة ٣٣١ وحمله أهله الى آسيا الصغرى حيث درس الفلسفة اليونانية في نيقوميدية . ولكنه لم يرتو من هذا المنهل فرحل الى اثينا وأخذ في درس القدماء واشربت روحه الوطنية الاغريقية القديمة وتشبعت نفسه بفلسفة الاثينيين فصار ينظر الى المسيحية كأنها فلسفة اسيوية قد أغارت على الغرب . ولكنه لم يكن يستطيع أن يصرح بانه يؤثر آلهة اليونان على آله المسيحية فكظم ما في نفسه الى أن ساعدته المقادير بان صار امبراطوراً . فشرع عندئذ يعمر أثينا ويدعو الطلبة الى دور العلم فيها كما كانوا يحضرون أيام أفلاطون

وارسطوطاليس وكان يحتم عليهم أن يلبسوا اللباس الذي كان يلبسه أباؤهم في عصر الفلاسفة وأن يتكلموا اللغة التي كان يتكلمها الاثينيون قبل ٧٠٠ سنة . وقد نرى من ذلك أن حماسته قد جاوزت عقله . فان هذا الحرص على محاكاة القدماء ليس تجديداً بل هو تقليد . وأصبحت دور العلم التي افتتحها أشبه شيء بدور التمثيل

وليس يستطيع أحد أن يحدس ما كان يمكن يوليان أن يفعل لو أن حكمه دام أكثر من سنتين . فانه حاول أن يمحو ثقافة آسيا ويقيم مكانها صرح الفلسفة اليونانية . ولكن الفلسفة اليونانية كانت قد نُسيت وكانت المسيحية قد رسخت في قلوب العامة . وكان الرهبان يؤلفون عنه الاكاذيب حتى حصبه غوغاء انطاكية مرة بالاحجار والتراب ومع كل هذا الاستفزاز لم يجنح مرة الى اضطهادهم وكان يقول يجب ألا يستشهد أحد . وفي سنة ٣٦٣ وهو يقاتل الفرس اخترق جسمه سهم حمل منه جريحاً ومات بعد أيام . وفي رواية انه عند ما اصيب بالسهم قال : « لقد انتصرت أيها الجليلي ! » والجليلي هو المسيح

واخذت الوثنية الآن بعد موت حامي حماها يوليان تنهزم وتنخسف امام المسيحية . ففي سنة ٣٧٨ صدر قانون ينهي الناس عن تقديم القربان للآلهة فانقطعت بذلك ارزاق الكهنة حتى اضطروا الى هجران المعابد . وكانت هذه المعابد تحتوي على طرف الصناعات القديمة وكان يتمثل في بنائها فن القدماء . فلما هجرت شرع الناس في نهبها وتدميرها ونقل الاحجار منها حتى السيرا بيوم المعبد الكبير الذي كان بالاسكندرية والذي تناوبت على بنائه جهود

المصريين والاغريق والرومان دُمر وبُعثر ما فيه . وجرى التدمير في ارض الفلاسفة بلاد اليونانيين فكانت التماثيل الناصعة من المرمر تحطم لانها من آثار الكفار النجسة . وفي سنة ٣٩٤ الغيت الالعاب الأولمبية لان الدين الجديد لا يعنى بالجسد عنايته بالروح . وجاء الامبراطور يوستنيان فالغى كلية اثينا واستصفى الأملاك الموقوفة عليها. وكان بها سبعة من الاساتذة فروا الى كسرى ملك الفرس فرحب بهم واذن لهم في قضاء ما تبقى من حياتهم في لعب الشطرنج

وكان بالاسكندرية جامعة انشأها البطالسة وعاشت عدة قرون وظهر فيها اقليدس صاحب النظريات الهندسية وارخميدس مخترع الطنبور الذي يستعمل الآن في الري في مصر وطائفة اخرى من العلماء. فلما كانت سنة ٤١٤ كان بها استاذة تدعى هيباطية في الخامسة والاربعين قد اختصت بدرس الحكمة وتدريسها . وكانت قد نشأت في بيت علم وفضل ابوها ثيون احد علماء الاسكندرية رباها صغيرة ثم ارسلها الى اثينا لكي تستكمل ما ينقصها فلما عادت الى الاسكندرية اخذت تدرس فلسفة ارسطوطاليس وافلاطون . وكان الطلبة الذين يحضرونها يعشقونها لحسن بيانها وللنزاهة التي تتسم بها في عصر كان كله اغراض وسفالات وتعصب . وكان بطرك الاسكندرية في ذلك الوقت رجل يدعى كيرلس اشتهر بشيئين يدلان على روح الزمن اولهما انه طرد جميع اليهود من الاسكندرية مع انهم كانوا دعائم عمارتها . والثاني انه الف كتاباً يسب فيه يوليان الامبراطور المرتد. وثالثة أثافيه هي تدبيره قتل هيباطية ومحو العلم من الاسكندرية .فقد خاف كيرلس تأثير الحكمة اليونانية في النفوس ورأى ان بقاء الجامعة

يكون بمثابة استحياء البذرة التي تنبت يوماً دوحة كبيرة قد تقضي على ما حولها من الاعشاب . فقر رأيه على الغاء الجامعة وفي احد الايام وهيباطية قاعدة تحادث الطلبة اذا بعشرات من الرهبان يتوافدون عليها ويقلبون كل ما يلاقونه رأساً على عقب . ثم قبضوا عليها وجروها الى احد شوارع الاسكندرية ثم مزقوها اشلاء التهمتها الكلاب الجائعة . وهكذا كان مصير الحكمة الى الكلاب على يد كيرلس بطرك الاسكندرية في سنة ٤١٥ م . وحق لفم الذهب بطرك القسطنطينية ان يفخر في القرن الرابع بان جميع الكتب الوثنية قد زالت من الوجود

البابا

النظر نظران : ذاتي وموضوعي . فنحن ننظر للاشياء نظراً ذاتياً كما نشتهيها ان تكون في خيالنا وفق رغائبنا . ونحن نتجرد أحياناً من خيالنا وننظر للاشياء نظراً موضوعياً فنراها كما هي في الواقع نتجرد بذلك من خيالنا ومن شهواتنا

فاذا نظرنا للدين الاسلامي مثلا نظراً ذاتياً فاننا عندئذ نجرده من أشياء عديدة ، من الخلافة ومن التحرج من الصلاة بالحذاء ومن استنجاس الكلاب . وذلك لاننا لا نجد نصاً بالخلافة في القرآن ولا نعلم ان السلف الاول من المسلمين كانوا يدخلون الجامع ويصلون بأحذيتهم والكلاب تجتاز بالجامع . وها اناذا انقل من كتاب « ذم الموسوسين » لابن قدامة المقدسي ما يدل على صحة ذلك . قال : « وروى انس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في النعلين » وقال : « وقال (النبي) : اذا جاء أحدكم المسجد فلينظر . فان رأى على نعليه قذراً فليمسحه وليصلِّ فيهما » وقال : « قال ابن عمر : كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول في المسجد . ولم يكونوا يرون شيئاً في ذلك »

فاذا نظرت الى الاسلام نظراً ذاتياً قلت انه لا يقول بالخلافة وانه تجوز الصلاة فيه بالحذاء وأن الكلب ليس حيوانا نجساً . ولكن هذا النظر يخالف الواقع لأن الخلافة عاشت ١٣٠٠ سنة تقريباً ولأن استنجاس الكلاب واستقذار النعل من التقاليد القديمة في

الاسلام . فانا لهـذا السبب أعد الخلافة جزءًا من الاسلام . لأن مركزي هو مركز المؤرخ الذي يقرر الواقع وينظر نظراً موضوعياً

وكذلك الحال في المسيحية اذا نظرت اليها نظراً ذاتياً انكرت البابوية بل انكرت الكنيسة والكهنة . لأن المسيح دعا المؤمن به أن يدخل الى غرفته ويقفل على نفسه ويصلي . ولكن المؤرخ يجب أن يقول أن في المسيحية كنيسة وكهنة وبابا

والحقيقة أن النظام الاجتماعي أو الديني لا يقوّم بنية صاحبه ومؤسسه بل بأثره في الهيئة الاجتماعية . والبابوية والخلافة كلتاهما من أثر المسيحية والاسلام وان لم يكونا من بنية المسيح أو محمد واذا كان لوثر قد انكر البابوية وعلي عبد الرازق قد انكر الخلافة فكلاهما يفعل ذلك بصفته رجل دين لا بصفته رجل تاريخ

وللبابوية أثر كبير في اوربا لا يمكن المؤرخ لحرية الفكر أن يتجاهله . فقد كان اسقف رومية في القرون الثلاثة الاولى من المسيحية لا يمتاز من سائر أساقفة المدن الكبرى في الامبراطورية بشيء . فلما انتقلت عاصمة الامبراطورية من رومية الى القسطنطينية في القرن الرابع أصبح أسقف رومية أكبر رئيس في العاصمة القديمة ولا يزال البابا يوقع تواقيعه الآن باسم « أسقف رومية »

واخذ باباوات رومية في زيادة سلطتهم بتنصير الامم النائية عن رومية في الشمال والغرب . وكانت الكنيسة في زمانهم لا تدعو الى النصرانية فقط بل كانت ايضاً سبيل نقل الحضارة الرومانية الى

الجرمان وما والاهم من امم الغرب والشمال . فانتفعت هذه الامم بالكنيسة ديانة ومدنية

وبين سنة ١٠٩٩ وسنة ١٧٢٠ كافحت رومية الاسلام فألبت عليه الجيوش وسيرتها الى فلسطين وسوريا لانتزاع الارض المقدسة من المسلمين كما أنها طاردت المسلمين من الاندلس حتى اضطروا الى التنصر أو الى النزوح عن البلاد

ولكن الكفاح الاكبر هو ذلك النزاع الذي نشب بين البابوية والقومية . فان البابا هو امير المؤمنين بين النصارى وهو لذلك ينظر اليهم كأنهم امة واحدة لغتهم الرسمية هي اللغة اللاتينية كما ان دياتنهم هي النصرانية . وهو يعترف بوجود امراء لهم ولكن كلمته هي العليا يجب على هؤلاء الامراء أن يصدعوا لها

وقد كان للبابا سلاح قوي لا يتحرج من استعماله اذا أراد اخضاع أمير خارج عليه . وهذا السلاح هو الحرم . يحرمه من المسيحية وقد يحرم رعيته فتكف الكنائس عن دق النواقيس وتقفل أبوابها فلا يستطيع أحد أن يتزوج وأيضاً يحمل الموتى الى قبورهم بلا صلاة . وفي الوقت نفسه يغري البابا أحد الامراء المجاورين لكي يغير على أمارة هذا الامير الخارج ويبارك عليه في غارته . وللقارىء أن يتصور أحوال الرعية في هذا الوقت . فان كل مسيحي كان يرى نفسه مرتبطاً بولاءين : ولائه لاميره وولائه للبابا . فاذا اختلف هذان الاثنان احتاج الى أن يقرر ترك أحدهما وفي الترك خسارة عليه على كل حال فهو يختار أهون الخسارتين . فكان ينزل عن الولاء لاميره ويخرج عليه ارضاء للبابا

ولننظر في حادثتين فقط من حوادث هذا النزاع . فقد حدث في القرن الحادي عشر أن هنري الرابع امبراطور المانيا الذي مات سنة ١١٠٦ اختلف مع البابا غريغوريوس السابع على مسألة اوقاف الكهنة . فلم يكن باسرع من أن حرمه البابا وألّب عليه امراء المانيا ورأى الامبراطور انه بين رعيته كالاجرب لا يقرب منه أحد بعد هذا الحرم فخرج ساعياً الى البابا وكان البابا في طريقه الى المانيا قد نزل في قصر في كانوسه . فوقف الامبراطور على الباب ثلاثة أيام وهو في لباس الرهبان حافي القدمين عاري الرأس يحمل عكازته ويقر بتوبته . وبعد هذا الذل اذن له البابا فقبل الارض بين يديه وخرج امبراطوراً مسيحياً كما كان قبل الحرم . ولكن نار الانتقام صارت تأكل قلبه . فعاد الى رومية بجيش جرار سنة ١٠٨١ وطرد البابا وأقام غيره

وهاك حادثة اخرى من حوادث هذا النزاع . اختلف الملك يوحنا ملك انجلترا الذي مات سنة ١٢١٦ مع البابا . فحرمه البابا وعُطلت الكنائس من الصلاة ومنعت عقود الزواج وحملت الجثث الى القبور بلا صلاة . ورأى يوحنا أن ملك فرنسا يتهيأ لغزو بلاده بأمر البابا . فاخذ يبحث عن أمير المؤمنين بين المسلمين لكي يخاطبه في أن يدخل هو وجميع الامة الانجليزية في دين الاسلام . ولكن البعثة التي أرسلها أخفقت . فعاد يوحنا صاغراً يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا . وصفح هذا عنه بعد أن رأى منه من الذل وصدق التوبة ما جعله يرفع الحرم عنه وعن الامة

فهذان مثالان يدلان القارىء على سلطة البابوية في القرون

الوسطى ومنها يعرف كيف أن « محكمة التفتيش » التي أنشأها البابا لمحاكمة المراطقة لم تحكم قط على أحد من هؤلاء المراطقة بالقتل. وانما كان يكفي أن تحرمه هي فتسرع الحكومة المدنية الى احراقه أو اعدامه باية طريقة اخرى. واذا هي توانت عن ذلك رأت السلطة البابوية تتحفز لمناوأتها

وأخيراً في سنة ١٥١٧ انتصر مبدأ القوميات باعلان لوثر للبروتستانتية

المانوية

نحن هنا في تاريخ حرية الفكر نقصر نظرنا على اوربا والاسلام لاتصال حياتنا الحاضرة بالثقافة الاوربية التي هي مادتنا الذهنية وأيضاً لما ورثناه من التقاليد الاسلامية العربية التي تؤثر فينا الى الآن. ولذلك لا نبحث عن هذه الحرية في الهند او الصين او اليابان لانقطاع الصلة بيننا وبين هذه الاقطار. ولسنا نخرج في هذا الفصل عن هذه القاعدة عندما ننظر في المانوية التي نشأت في فارس. فان فارس وإن كانت بعيدة عنا الا انها اخرجت ديناً عجيباً تخطاها إلى المانيا وفرنسا ومصر وعاش دهراً ثم انقرض فجأة بعد ان أثر اثره في المسيحية بل في الاسلام ايضاً. ثم نحن نذكر الاديان لعلاقتها بالاضطهاد وتقييد الحرية الفكرية فقط. وقد ظهرت « محكمة التفتيش » لاول ما ظهرت في أوربا بسبب العقائد المانوية التي تسربت إلى المسيحية كما تسربت بعد ذلك الى الفرق الاسلامية

وإذا قلنا ان « محكمة التفتيش » نشأت بسبب العقائد المانوية فاننا لا نعني بذلك ان الاضطهاد الديني لم يعرف قبل هذه المحكمة فانه ما كادت المسيحية تنتصر على الوثنية حتى شب الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها. وعقد اول « مجمع مسكوني » في نيقية سنة ٣٢٥ لتقرير العقائد. وحدث النزاع المشهور بين آريوس واثناسيوس على طبيعة المسيح هل هو مثل الله أو دونه أو هل هما

واحد أو نحو هذا من الخلافات التي لا نأبه نحن لها الآن ولا نفهمها لا تنا تثقفنا بثقافة أعلى وأعمق من ثقافة اصحاب آريوس وأصحاب اثناسيوس . ولكن محكمة التفتيش هي أول أداة منظمة للعقاب ظهرت في المسيحية ويرجع تأسيسها إلى العقائد المانوية ورغبة رجال الكنيسة الكاثوليكية في تجريد الدين منها

كان ماني مؤسس المانوية رجلا فارسياً وُلد بالمدائن سنة ٢١٥ وجعل دينه مزيجاً من الاديان الشائعة في زمنه ولقي حظاً قليلا في نشره . ثم انتصرعليه رجال الدين في فارس فصلبوه وسلخوه وحشوه تبناً وعلقوه مدة ما لكي يعتبر المؤمنون به . ولكن تجارب الامم تدل كلها على ان الافكار لا تقتل بالسيف أو بالنار . فما هو ان مات ماني حتى كان الناس يستشهدون من أجل افكاره في فرنسا واسبانيا وحتى كان الاقباط في مصر يمارسون طائفة كبيرة من عقائده لا تزال حية إلى الآن . ويبدو لمن تأمل المانوية ان ماني كان يقصد الى إيجاد وفاق عام بين الناس بالتوفيق بين اديانهم جميعاً فقد درس البوذية واخذ منها فكرة التسلط على الشهوات وقمعها بسحق الجسم وحرم لذلك جملة مآكل وقصر طعامه على الخضراوات والسمك كما هو صوم الاقباط الآن . وجرى في منطقه البوذي الذي استقاه من معينه بعد ان ساح في الهند والصين الى نهايته بأن جحد الحب والتناسل فقال بايثار العزوبة على الزواج . وترجع العزوبة التي يتسم بها كهنة الكاثوليك الآن إلى هذه النزعة المانوية . ثم اخذ من زرادشت نبي الفرس تقسيم القوة الكونية الى مبدأين مبدأ الخير ومبدأ الشر . وكان زرادشت يعبر عن الاولى بالضوء وعن الثانية

بالظلام . فنقح هو هذا التعبير بان جعل الـه المسيحية مبدأ للخير والـه اليهود « يهوه » مبدأ للشر . وتقوضت كنيسته بموته سنة ٢٧٦ ولـكن عقائده كما قلنا لم تمت فتقمصها الـكهنة المسيحيون في غرب اوربا وجنحوا إلى العزوبة وحرموا على الناس قراءة التوراة لانه كتاب « يهوه » . وكان المانويون يدعون « الطاهرين » لشدة تقشفهم ولاعلائهم شأن الروح وانكارهم اللذات الجسدية

وأول ضحايا المانوية أسقف اسباني يدعى بريشيليان احرق سنة ٣٨٥ لهرطقته المانوية . وبعد هذا التاريخ لا نسمع شيئاً عن المانوية الى القرن الحادي عشر حين نسمع عن طوائف تتسمى باسماء مختلفة ولـكنها مشربة بهذا المذهب . فنهم طائفة « الالبيين » عاشت في جنوب فرنسا الشرقي لا نعرف متى ابتدأ تكونها وانما يذكر التاريخ أن أول من قتل لتمسكه بمذهبها كان سنة ١٠٢٢ وان آخر من قتل كان سنة ١٢٤٥ . وان محكمة التفتيش انشئت في هذا العهد . ولما لم تكف المحكمة اذ كان كل شهيد يقتل أو يحرق يتقدم لملء فراغه عشرة أو عشرون نظمت الجيوش وسلطت على الطائفة كلها لمحقها . وكان الالبي يؤمن بان الجسم والمادة كليهما شر وان المسيح انما عاش على الارض روحا لا جسم له وأن الزواج منكر يحسن بالانسان أن يتجنبه وأن الانسان لا يمكنه أن يتحرر تماما الا بالتقشف وانكار الذات . وكانت الطائفة منقسمة فئتين : فئة القادة «الطاهرين» . وهؤلاء كانوا يعيشون في نسك وتقشف بالغين . وفئة « الاتباع » الذين لم يكن يطلب منهم مثل هذا النسك أو التقشف . ولعل كل ذلك كان يمكن كنيسة البابا أن تتسامح فيه وتتصام عنه .

ولكن الألبيين كانوا ـ وهذا موضع الخطر ـ يرفضون أن يرضخوا للكنيسة بقرش واحد من مالهم . واخيراً الهب الالبيون شرارة الحرب بان قتلوا مندوب البابا في بروفانس الاقليم الذي يسكنونه . فتعلل البابا انوسنت الثالث بقتل مندوبه ودعا لجهادهم ورغّب الناس في هذا الجهاد بان كل من يقاتل هؤلاء الكفار أربعين يوماً متوالية يرفع عنه ربا الديون التي يستدينها وتغفر له خطاياه السابقة واللاحقة وأيضاً يعفى مدة القتال من سريان أحكام القضاء عليه . ومعنى هذا الامتياز الاخير أنه يستطيع أن يفعل بمن يقاتلهم كما يشاء . واجتمع الاوباش من جميع أنحاء اوربا تلبية لهذا النداء ومحقوا الالبيين محقاً . وكان يقود هؤلاء الاوباش رجل انجليزي يدعى سيمون دومونتفورث كوفىء على الفظائع التي ارتكبها باقطاعه عدة ضياع واسعة في أرض هؤلاء المساكين الذين قتلهم وأبادهم . وبقي أفراد من الالبيين توزعوا في البلاد وقد ذلوا واستكانوا ولكن محكمة التفتيش كانت تستثيرهم من أجحارهم وتعمل فيهم الموت قتلا بالسيف واحراقاً بالنار وخنقاً بالحبال الى أن زال اسمهم تماماً

وكانت محاكم التفتيش تنشأ في كل مكان وتحاكم الناس على كل شيء . وأشهر هذه المحاكم « المحكمة الملوكية » في اسبانيا و « المحكمة المقدسة » في رومية . والاولى مشهورة بقتل الاندلسيين المسلمين واليهود . وعاشت محاكم التفتيش اكثر من خمسمائة سنة قتلت فيها الالوف من الناس . ولا نعني بالناس دهماءهم الذين يرضون بما يملى عليهم بل نعني خيارهم وعلماءهم ومفكريهم اولئك الذين كانت لهم كرامة فكرية لا يبيعونها بنفوسهم وكان لهم عرض ديني ينافحون

عنه وكان لهم ضمير يأبون الزنا عليه، هؤلاء الناس قتلتهم محاكم التفتيش فحرمت اوربا من هذا العرق الثائر الحر الكريم واستأصلت من اسبانيا جرثومة التفكير الحر حتى باتت هذه الامة وهي تعيش الآن باجسامها في القرن العشرين وأرواحها لا تزال تتحسس الحياة في القرون المظلمة

وكان الانسان في تلك العصور يكبس منزله وهو هادىء وادع فيحمل في جوف الليل ويعتقل الاشهر بل السنين وهو لا يدري ماهية التهمة التي سيتهم بها لان خصماً له من الجيران قد ابلغ المحكمة بانه سمعه يقول كيت وكيت عن « الرؤيا » او عن « الثالوث » أو عن « المعجزات » وكان يحرم على المتهم ان يوكل عنه محامياً أو ان يعرف اسم الذي أبلغ عنه. وكانت المحكمة تعتبر شهادة الهرطيق اذا كانت على المتهم فاذا كانت له لم تعتبرها . ثم إذا أصر المتهم على انكار ما نسب اليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بان تقطعه أشلاء شلواً بعد شلو امام عينيه او ان تقرض لحمه بالمقراض واخيراً تحرقه . وقد يحرق وهو لا يدري فيم أحرق . وقد يبدو غريباً للقارىء ان يعرف ان محكمة التفتيش كانت تحكم على رجل قد مضى على موته نحو خمسين سنة فتأمر بنبشه من القبر وتستصفي جميع املاكه بعد أن تتهمه بتهمة الهرطقة التي ربما كان هو نفسه لا يعرف منها شيئاً دع عنك ورثته المساكين الذين يصادرون في املاكهم اعتباراً بانها كانت ملك هذا السلف الخاطىء فيخرجون من نعمة نشأوا وتقلبوا على بساطها شريدين مطرودين يمتهنهم من كان دونهم في المقام والمال

وكانت طائفة الرهبان الجوالين يتجرون بالدين يطرقون الناس

وينزلون ببيوتهم يأكلون ويشربون هانئين في رغد فاذا أحسوا بضجر او اساءة اتهموا رب البيت بالهرطقة . ولم يكونوا يخشون شيئاً لأنهم كانوا يعرفون أن المتهم سيقر بالتهمة لفرط ما ينال جسمه من العذاب . فاذا اعترف قتل ولم يقف الجمهور على غدرهم وباطلهم

وقد كان هؤلاء الرهبان ومحاكم التفتيش سبباً من أسباب النجاح الذي أصابته الدعاية البروتستانتية بل سبباً ايضاً من أسباب نزعة الالحاد التي فشت في العالم الاوربي

ظهور الاسلام

في القرن السابع كان الشرق الادنى قد سئم سيطرة القسطنطينية لان اختلال إدارتها كان قد بلغ شأواً عظيماً ولان الخلافات المذهبية بين الطوائف كانت قد كرّهت الناس في حكوماتهم المحلية . فما هو ان هبت الريح العربية حتى تلقاها اهل سوريا ومصر كما يتلقى المحرور النسيم . وكانت روح الاسلام المهادنة والمحايدة فكان يقنع في اول ظهوره بالجزية من الذميين ويترك لهم شئونهم الداخلية . وكان جنود العرب يقيمون في ارباض المدن بعيدين عن الاهالي . فخف لذلك عبئهم على الاهالي وآثروهم على الرومانيين

وإذا أردنا ان نستكنه روح الاسلام يجب ان نفهم روح الاعرابي في جزيرة العرب . فهي روح البداوة . والبدوي بطبيعة معيشته يتعصب لوحدانيـة الله تعصباً شديداً ويكره جميع ضروب الترف سواء اكان هذا الترف ذهنياً ام مادياً . وربما كان الوهابيون الآن أقرب من يمثل لنا فورة الاسلام وهبوب العاصفة العربية على الدولة الرومانية

ويمتاز الاسلام من سائر الاديان بأنه ليس له كهنة سوى كاهن واحد هو الخليفة . ولست في قولي هـذا اجهل تلك المحاولات الشريفة التي حاول بها كتاب عصريون ان يجعلوا الخلافة منصباً مدنياً فقط. فان الذي يبعثهم على ذلك بواعث شريفة ولـكنها تخالف التاريخ .

فالواقع ان الخليفة حاكم مدني وديني معاً وان الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن ابي طالب انما فعلوا ذلك لانه في نظرهم لم يستبد الاستبداد اللائق بالخلافة وانه رضي بالتحكيم مع ان الخلافة منصب ديني يستمد سلطته من الله ويشترط الاستبداد بالرأي . ولكن المتأمل في هذا الموضوع يرى نفسه في مأزق من الشك هل ينسب الاستبداد في الخلافة الى الروح البدوية العربيـة أم الى فقهاء الاسلام . عن الجهة الواحدة نرى ان العربي البدوي يؤثر الحكم المطلق وبيئته تساعده على ذلك لانه في رحلته او مقامه في وسط الصحراء كالمسافر على السفينة ينظر الى الربان نظرة الجندي للقائد أو هو بين اخطار الغارات التي قد تنزل به في أي وقت يحتاج الى قائد مستبد يرى الرأي وينفذه في التو والساعة . ومن الجهة الاخرى نرى ان أمماً مسلمة كثيرة بعدت عن الروح العربية ولكن بقي بها استبداد الخلافة . وقد يقال ان القرآن لم ينص على الخلافة . وهـذا صحيح ولكن الانجيل أيضاً لم ينص على البابوية . فكما انه لا يمكن ان نخلي المسيحية من تبعات البابوية فكذلك لا يمكن ان نخلي الاسلام من تبعات الخلافة . والحقيقة أن البابوية والخلافة ترجعان الى التقاليد المأثورة لا إلى الانجيل ولا إلى القرآن

وقد انتفع الاسلام من عدم وجود الكهنة في نظامه ولكن بقاء المسحة الدينية على الخلافة كاد يزيل هذه الميزة التي للاسلام على الكنيسة المسيحية . فان المهدي والهادي مثلاً اقترفا فعلا بخلافتهما من اضطهاد الزنادقة مثلما اقترف الكهنة بمحكمة التفتيش من اضطهاد الهراطقة . ومن يقرأ الخطب التي فاه بها بعض الخلفاء

يشعر ان دعواهم بالحق الآلهي في الحكم الديني والدنيوي تزيد على دعوى الباباوات في رومية .

وليس يجدي القارىء ان نبحث عن أصول الاسلام أو غاياته أو مقدار قيمته العمرانية فان الظروف لا تؤاتينا على ذلك وكل ما يمكن ان نقوله انه دين بدوي يتسم بكراهة الترف وبشدة الايمان بالوحدانية وان الوهابيين يمثلون روحه الآن أصدق تمثيل

الخليفة

الخليفة والبابا كلاهما كان له شأن في تاريخ حرية الفكر ، الأول في الشرق والثاني في الغرب . وكلاهما قد اعتمد على سلطة الهية ليس للبشر سلطان عليها . ولذلك لا يمكن مؤلفاً يؤرخ حرية الفكر أن يهمل الالمام بتاريخهما .

والخليفة هو مصدر السلطات الدينية والمدنية لجميع الامم الاسلامية . وهو من حيث الانتخاب يشبه البابا . فكلاهما ينتخب . والبيعة هي الشكل الذي عرفه المسلمون لتقرير الانتخاب ويقابلها عند البابا القرعة . فالبابا كان ولا يزال ينتخبه الكرادلة أي كبار الكهنة بالقرعة . أما الخليفة فكان مدة الخلفاء الراشدين ينتخب بالبيعة العلنية تنتخبه الامة بأجمعها . ولكن في حين ان البابا لا يزال ينتخب للآن فان الخلفاء منذ ابتداء الدولة الاموية الى آخر الدولة العباسية والعثمانية كانوا يتوارثون الخلافة

وقد كانت الخلافة مدة الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي يغلب على خلفائها الزهد والورع . فلما انتقلت الى الامويين زالت عنها المسحة الدينية تقريباً مع استثناء عمر بن عبد العزيز . وهي لو استمرت في دولة الامويين لاقتصرت على الحكم المدني وربما كان اهتدى المسلمون بالامويين الى نظام دستوري لحكمهم . فقد كان الامويون ينظرون الى العرب بعين العطف والى الاسلام بعين

الجسد وكانوا يكبتون جميع النزعات الدينية

ولكن ظهرت الدولة العباسية وهي تنتمي الى العباس عم النبي فعادت الصبغة الدينية . واستمر الخلفاء في صعود الى أن استولى الفرس والاتراك على البلاد فضيقوا على الخليفة وأحرجوه الى الانزواء في قصره ورتبوا له معاشاً فعاد اسوأ حالا من البابا الآن

واليك الآن خطبة لأبي جعفر المنصور العباسي الذي مات سنة ٧٧٥ م تدلك على مقدار نظره الى سلطته . قال :

« أيها الناس انما أنا سلطان الله في أرضه اسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده . وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه . فقد جعلني الله عليه قفلا ان شاء أن يفتحني فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم . وان شاء أن يقفلني عليها اقفلني . فارغبوا الى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه اذ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والاحسان اليكم »

ولما استوزر الناصر الذي مات سنة ١٢٢٥ م وزيره محمد بن برز القمي أذاع منشوراً بين الناس هذا نصه : « محمد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد . فمن أطاعه فقد أطاعنا . ومن أطاعنا فقد أطاع الله ومن أطاع الله أدخله الجنة . ومن عصاه فقد عصانا . ومن عصانا فقد عصى الله . ومن عصى الله أدخله النار »

واختلفت حظوظ الخلفاء من سطوة المنصور الى ذلة القاهر ومن ابهة الرشيد الى ورع عمر بن عبد العزيز . ويمكن أن يقال ان

الاتراك هم الذين جعلوا الخلافة اسماً بلا مسمى فانهم كانوا يخلعون الخلفاء ويسملون عيونهم ويعذبونهم . فمن ذلك ما فعلوه بالقاهر الذي بويع سنة ٩٥١ م . فانهم : « هجموا عليه وخلعوه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه . ثم حبس في دار السلطنة ومكث في الحبس مدة ثم اخرج منه عند تقلب الاحوال . وكان مرة يحبس ومرة يفرج عنه . فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس ... فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم »

ولما دخل المغول بغداد انتقلت الخلافة العباسية الى القاهرة وبقي الخليفة يمثل المجد التاريخي القديم ويولي الامراء باسمه الى أن جاء سليم سلطان الاتراك فاحتمله معه الى القسطنطينية ولا يعرف هل نزل له الخليفة عن حقوق الخلافة أم ادعاها سليم دعوى القادر الغاصب . وبقيت الخلافة في سلاطين الاتراك الى أن الغاها الاتراك حديثاً ومحوها من بلادهم

وكان من الخلفاء المحب للعلم والكاره له فكان منهم المأمون الذي كان يأمر بنقل فلسفة الاغريق الى العربية . وكان منهم ايضاً المهدي الذي كان « شديداً على أهل الالحاد والزندقة لا تأخذه في اهلاكهم لومة لائم »

التسامح في الاسلام

من أحسن الكتب التي وضعت في اللغة العربية في بدء هذا القرن كتاب « ابن رشد وفلسفته » الذي الفه فرح انطون . فهو أول كتاب ظهر في اللغة العربية يدافع عن حرية الفكر والتسامح الديني . وقد حدثت بين المؤلف والشيخ محمد عبده مناقشة حادة بشأن التسامح في الاسلام والنصرانية يمكن القارىء الراغب في المزيد في هذا الموضوع أن يرجع اليها في الكتاب نفسه . ولكننا وجدنا فيه للشيخ محمد عبده دفاعاً عن الاسلام يحسن بنا أن نثبته هنا حتى يذكره القارىء وهو يقرأ ما نقلناه من الكتب التاريخية بشأن اضطهاد بعض الخلفاء لغير المسلمين من النصارى واليهود . قال الشيخ محمد عبده :

قال المستر دريبر أحد المؤرخين ومن كبار الفلاسفة : « ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام . بل فوضوا اليهم كثيراً من الاعمال الجسام . ورقوهم الى المناصب في الدولة حتى ان هرون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه » وقال في موضع آخر : « كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة أخرى . ولم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين

الذي وُلد فيه بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة . قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون : « ان الحكماء هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة. هم ضياء العالم وهم واضعو قوانينه ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية » . وقال في موضع آخر : « ان العرب زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما اتوا على حدوده بأسرع مما اتوا على حدود مملكة الرومانيين » ولست في حاجة الى ذكر ما اسس الخلفاء والملوك من المدارس وأقاموا من المراصد وما حشدوا من الكتب الى المكاتب لان هذا خارج عن بحثنا الآن . . . اذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء

جيورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور كانت له زوجة عجوز لا تشتهى فاشفق عليه المنصور وانفذ اليه ثلاث جوار حسان فردهن وقال : « ان ديني لا يسمح لي بان اتزوج غير زوجتي ما دامت حية » فاعلى مكانته حتى على وزرائه . ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشياً يسأل عن حاله فاستأذنه الحكيم في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه . فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال : « رضيت ان اكون مع آبائي في جنة أو نار » فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا مات في الطريق الى مدافن آبائه كما طلب . ثم سأله عمن يخلفه عنده فاشار الى عيسى

ابن شهلاثا أحد تلامذته . فاخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال منهم رغائبه فشعر الخليفة بذلك وطرده

ومن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده ابو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس . ثم كانت ذرية مسلمة لابي سهل . وكانوا جميعاً منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل ابن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة ونقل كتاب اميروس الى السريانية بافصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني (الذي تقدم ان الرشيد جعله مديراً لجميع مدارس بغداد) . ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة طبية وغيرها وخدم الرشيد ومن بعده الى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلساً للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما كان يجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدرة في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أميناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل مارستان جنديسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيباً عند المعتصم ولما مات جزع

عليه جزعاً شديداً وأمر أن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوماً فاجلسه بجانبه وكان عليه دراعة رومية من الحرير بها فتق . فاخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل الى النيفق وهو ما اتسع من الثوب . ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون ان الموسوس يحتاج الى الشد ؟ فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه . فضحك المتوكل حتى استلقى . وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره . وامتحن المتوكل صدقه فظهرت له عزيمة لا تفل فاقطعه اقطاعات واسعة . وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهباً . وكان بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت الى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة فمات غماً لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة . وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متقناً في جميع العلوم العقلية أخذ عنه أبو نصر الفارابي وانتهت اليه الرياسة في بغداد . وكان من أهل دير قني ونشأ في مدرسة مار ماري وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة

الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء الى بغداد لاجل الترجمة. ثم يحيى ابن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرياسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم. قالوا كان كاتب الجاثليق متميزاً في النصارى ببغداد. وكان يقرىء صناعة الطب في المارستان العضدي وكان معاصراً للشيخ الرئيس بن سينا والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت ابن قرة الحراني الصابىء من طائفة الصابئين المعروفة. تربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور. وبلغ من علوم الفلسفة مبلغاً لم يدانه فيه غيره وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات وبلغ عند المعتضد مقاماً تقدم فيه عنده على وزرائه. وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين بحران. ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما. ومن حفدته أبو الحسن ثابت ابن قرة. وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ما علمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة. اه

* * *

انتهى ما أردناه من كلام الشيخ محمد عبده ومنه يرى القارىء شيئين:

١ً ـ تسامح الخلفاء ورعايتهم للعلماء النصارى

٢ً ـ تشجيعهم للعلوم

معاملة الخلفاء لليهود والنصارى

في معظم حوادث الاضطهاد الديني نجد أن رجل الدين يتعلل بالدين وغايته في الحقيقة السياسة . ولولا المصلحة السياسية أيضاً لبقي الدين معتكفا منعزلا وحده في جامع أو صومعة . فقد تسمع أن ريتشارد قلب الاسد صادر اليهود في أموالهم في انجلترا يتعلل في ذلك بأنهم يهود كفار وفي الوقت نفسه ينتفع باموالهم في الحروب الصليبية . وكذلك الحال في كل اضطهاد تقريباً نزل باليهود الاصل فيه هو السياسة والوسيلة هي الدين . ولذلك نجد أن النظر الديني لليهود والنصارى يختلف باختلاف الزمان والمكان أي باختلاف النظر السياسي . فقد قضت السياسة على عمر بن الخطاب أن يمحو النصرانية واليهودية من جزيرة العرب فمحاها وقضت السياسة ايضاً على مسلمي الاندلس أن يتسامحوا مع النصارى فبلغ من تسامحهم مع استثناء بعض نزغات التعصب ان جعلوا يوم الاحد يوم البطالة واذنوا للمبشرين بالنصرانية بالوقوف على أبواب الجوامع لدعوة المسلمين الى النصرانية . وكان امراؤهم يتخذون هيئة الامراء النصارى في اللباس ويصاهرونهم . وكذلك نرى من التسامح في مصر شيئاً كثيراً حين كان امراء مصر وخلفاؤها يستوزرون الاقباط . وقيمة هذا التسامح تزداد وضوحا عندما نقابله بالمعاملة التي لاقاها المسلمون

واليهود على أيدي الاسبانيين الذين استأصلوهم من اسبانيا بعد ان فتكت بهم محكمة التفتيش

وفي ما يلي سنذكر ثلاثة من خلفاء الاسلام اثنان منهما من الطراز الاول في العدل كما يفهمه كل منهما وواحد لا شك في هوسه. وسترى الآن أن ما يعزى من الاضطهاد للاثنين الاولين وهما عمر بن الخطاب والمأمون انما هو أشبه بالاضطهاد السياسي منه بالاضطهاد الديني . وأما ما يعزى الى الثالث وهو الحاكم بأمر الله فضرب من الهوس . ولكن يبقى بعد ذلك أن هؤلاء الثلاثة اضطهدوا اليهود والنصارى وتعللوا بالدين في اضطهادهم

فقد كان عمر بن الخطاب يقصد الى رفع شان العرب وتوثيق عرى قوميتهم فطرد اليهود والنصارى من الجزيرة . ثم أمر بألا يسمح ببناء كنائس جديدة أو ترميم ما تهدم منها ومنع النصارى من اقامة الصلبان فوق الكنائس كما منعهم من حمل كتبهم المقدسة في المواكب أو الاماكن العامة . وأجبرهم على تخفيض صوتهم عند الترتيل في الكنائس اذا كانت هذه الكنائس في حي يسكنه المسلمون . ومنعهم من ايقاد الشمع والمشاعل في المشاهد وقت تشييع الجنائز . وحرم عليهم محاولة تنصير مسلم أو أن يحولوا دون اسلام نصراني . ومنعهم من أن يتخذوا هيئة المسلمين في اللباس وحظر عليهم التسمي باسماء عربية أو نقش الاحرف العربية على خواتمهم . ومنعهم من استعمال السروج أو حمل السلاح . وكتب الى عمرو بن العاص والي مصر يأمره بان يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص وأن تجز نواصيهم وأن يركبوا عرضاً وأن يظهروا زنانيرهم

أما المأمون فان شهرته بالعدل لا تقل عن شهرة عمر. وقد ذكر الكندي عنه قصة جرت بمصر وقت زيارته لها تدل على نظره للمخالفين للدين . فانه عندما كاد يبلغ تخوم مصر الشرقية أنبيء بخروج المسلمين والاقباط في سمنود متحدين على الوالي لفرط ما كابدوا من الجور وما تحملوا من الضرائب الفادحة . فتغاضب المأمون وعنف الوالي وحمله هو وجباته اللوم كله وتوعدهم بالعقاب القريب . وتعالم الناس بما فاه به المأمون وبلغ الثائرين ما قاله وما توعد به الوالي وجباة الضرائب فاتفقوا مسلمين وأقباطاً على أن يستأمنوا للمأمون وينزلوا على حكمه . فلما استأمنوا وسلموا سلاحهم عفا عن المسلمين ثم قبض على جميع الاقباط رجالاً ونساء وهم يعدون بالآلاف فقتل جميع الرجال وباع النساء والصبيان

بقي الحاكم الخليفة الفاطمي الذي قتل بالقاهرة سنة ١٠٢١ م . وهو يختلف عن عمر والمأمون من حيث ان التاريخ يصفه بالهوس والسخافة بمقدار ما يصفهما بالعقل والحكمة . واضطهاده للاقباط في مصر اكثره هوس فانه أمرهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار في أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين . وقبض على ما في الكنائس وأدخله الديوان ومنع النصارى من شراء العبيد وهدم كنائسهم وأجبرهم على الاسلام وعاملهم بغير ذلك من ضروب التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل في مصر . فمن هوسه انه أجبرهم على أن يعلقوا الصلبان من أعناقهم طول الصليب ذراع ووزنه خمسة ارطال . وأجبر اليهود على أن يعلقوا من أعناقهم قرامي الخشب بوزن صلبان النصارى . وألا يركبوا شيئاً من المراكب المحلاة وأن

تكون ركبهم من الخشب وألا يستخدموا أحداً من المسلمين ولا يركبوا حماراً لمكار مسلم . ولعل معاملته لهم أعظم ما أصابهم من الاضطهاد مدة الحكم الاسلامي

على أن معاملته للمسلمين لم تكن عادلة وإن كانت دون الاضطهاد فقد منعهم من أكل الملوخيا والجرجير ومنع النساء من التبرج . وأمر الخطباء بلعن السلف ويقال انه هو نفسه كفر بالاسلام وحاول إقامة دين جديد . وهو مؤسس دار الحكمة التي كانت تنشر الكفر والزندقة

ولما اشتد اضطهاده للاقباط أسلم معظمهم فلما رجع عن اضطهاده أذن لهم في الارتداد فارتدوا

ففي هذه الامثلة الثلاثة نرى اضطهاداً صريحاً ولكن لا يمكننا مع الانصاف أن ننسب هذا الاضطهاد للاسلام . فان معاملة عمر والمأمون للنصارى واليهود انما كان تبعثهما عليها المصلحة القومية وسياسة الدولة . أما معاملة الحاكم فهوس لا غش فيه . وإن كان الثلاثة قد تعللوا بالدين

ويحسن بنا أن نختم هذا الفصل بهذه القطعة الآتية التي نقلناها من تاريخ الاتراك لمحمد فريد بك عن محمد الفاتح ومعاملته للنصارى حين فتح القسطنطينية ١٤٥٣ . قال :

« ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب فاصدر أوامره بمنع كل اعتداء فساد الامن . ثم زار كنيسة أيا صوفيا وأمر بان يؤذن فيها بالصلاة اعلاناً بجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين . وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في كافة

الجهات انه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين بل انه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم . فرجع من هاجر من المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين. ثم جمع أئمة دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم فاختاروا جورج سكولاريوس واعتمد السلطان هذا الانتخاب وجعله رئيساً لطائفة الاروام واحتفل بتثبيته بنفس الابهة والنظام اللذين كان يعمل بهما للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين وأعطاه حرساً من عساكر الانكشارية ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالاروام وعين معه في ذلك مجلساً مشكلا من اكبر موظفي الكنيسة واعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس وفي مقابلة هذه فرض عليهم دفع الخراج مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط »

ابن حنبل وخلق القرآن

في عصر المأمون والمعتصم وهما من خلفاء الدولة العباسية ظهر القول بخلق القرآن وحُمل الناس على هذا القول وضُرب المخالفون وعُذبوا . وكان ابن حنبل إماماً عظيما من أئمة المسلمين سئل عن رأيه في هـذه البدعة فانكرها فضربه المعتصم وحبسه وعذبه وهو مصر وبقي على اصراره حتى مات . وكان ابن حنبل يرى أن القرآن لم يحدث في عهد النبي وأنما هو خالد

وُلد ابن حنبل سنة ٧٨١ ومات سنة ٨٥٦ م و « كان إمام المحدّثين صنف كتاب المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره وكان من أصحاب الامام الشافعي وخواصه . ولم يزل مصاحبه الى أن ارتحل الشافعي الى مصر وقال في حقه : « خرجت من بغداد وما خلفت أتقى ولا أفقه من ابن حنبل . . . وكان شديد الاتباع للسنن أخذ عنه كثيرون من الائمة . وطاف ابن حنبل في بلاد كثيرة ودخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ... وقبره ببغداد مشهور »

قال الدميري : « ان القول بخلق القرآن ظهر في أيام الرشيد وكان الناس فيه بين أخذ وترك الى زمن المأمون الذي حمل الناس على القول بخلق القرآن وكل من لم يقل بخلق القرآن عاقبه أشد عقوبة . وكان الامام احمد بن حنبل إمام أهل السنّة من الممتنعين

من القول بخلق القرآن فحمل الى المأمون مقيداً ومات المأمون قبل وصوله اليه »

وتولى المعتصم بعد المأمون وكان ابن حنبل بالسجن وكان المأمون قد عهد الى أخيه المعتصم بالخلافة وأوصاه بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن « واستمر الامام احمد محبوساً الى أن بويع المعتصم فاحضر الى بغداد وعقد له المعتصم مجلساً للمناظرة . فيه عبد الرحمن ابن اسحاق والقاضي احمد بن أبي دؤاد وغيرهما . فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل معهم في جدال الى اليوم الرابع فامر بضربه فضرب بالسياط ولم يزل عن الصراط الى أن اغمي عليه . ونخسه عجيف بالسيف ورمى عليه بارية . وديس عليه . ثم حمل وصار الى منزله وكانت مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهراً

«ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات ويفتي ويحدث الى أن مات المعتصم وولي الواثق فاظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة وقال للامام احمد : لا تجمعن اليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه . فاقام الامام احمد مختفياً لا يخرج الى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق وولي المتوكل فرفع المحنة وأمر باحضار الامام احمد واكرامه واعزازه واطلق له مالا كثيراً فلم يقبله وفرقه على الفقراء والمساكين »

ومن هذه الحكاية التالية نفهم معنى القول بخلق القرآن : « حكي ان الامام الشافعي رضي الله عنه لما كان بمصر رأى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وهو يقول : بشر احمد بن حنبل بالجنة

على بلوى تصيبه فانه يدعى الى القول بخلق القرآن فلا يجيب الى ذلك. بل يقول هو منزل غير مخلوق »

قال الدميري : « ان المعتصم كان يخلو به (أي بابن حنبل) ويقول له : ويحك يا احمد أنا والله عليك شفيق واني لاشفق عليك مثل شفقتي على ابني ... فاجبني فوالله لئن أجبتني لاطلقن غلك بيدي ولاطأن عتبتك ولاركبن اليك بجندي . فيقول : يا أمير المؤمنين أعطوني شيئاً من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاذا طال به المجلس ضجر وقام ورُد احمد الى المكان الذي كان فيه . وتتردد اليه رسل المعتصم يقولون : يا أحمد أمير المؤمنين يقول لك : ما تقول في القرآن ؟ فيرد عليهم كما رد أولا . فلما كان اليوم الثالث طلب للمناظرة فادخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات والقاضي احمد بن أبي دؤاد . فقال المعتصم : كلموه وناظروه . فلم يزالوا معه في جدال الى أن قالوا : يا أمير المؤمنين أقتله ودمه في أعناقنا . فرفع المعتصم يده ولطم بها وجه الامام احمد فخر مغشياً عليه . فتمعرت وجوه وفود خراسان وكان عم احمد فيهم فخاف الخليفة منهم على نفسه فدعا بماء ورش على وجهه . فلما أفاق من غشيته رفع رأسه الى عمه وقال : يا عم لعل هذا الماء الذي رش على وجهي غصب عليه صاحبه

« فقال المعتصم : ويحكم أما ترون ما يتهجم به عليّ هذا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لا رفعت السوط عنه حتى يقول القرآن مخلوق . ثم التفت الى احمد وأعاد عليه القول فرد احمد كالاول . فلم يزل كذلك حتى ضجر وطال المجلس فعند ذلك قال :

عليك لعنة الله لقد طمعت فيك قبل هذا خذوه اخلعوه اسحبوه . فاخذ وسحب ثم خلع . ثم قال المعتصم : السياط . . . وشدوا يديه فتخلعتا ولم يزل احمد يتوجع منهما حتى مات . ثم قال المعتصم للجلادين : تقدموا . ونظر الى السياط فقال : ائتوا بغيرها »

وتناوبه الجلادون بالضرب . « وجعل بعضهم يقول : يا احمد امامك على رأسك قائم فاجبه وعجيف ينخسه بالسيف ويقول : اتريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟ وبعضهم يقول : يا امير المؤمنين اجعل دمه في عنقي »

وضرب ثمانية عشر سوطاً وحمل الى حجرة « ثم وجه المعتصم رجلاً ينظر الضرب والجراحات ويعالجه فنظر اليه وقال : والله لقد رأيت من ضرب الف سوط فما رأيت اشد ضرباً من هذا ثم عالجه وبقي اثر الضرب بيناً في ظهره الى أن مات »

قال الدميري : « ثم قام بالامر بعد المعتصم ابنه هارون الواثق بالله . . . ولما وَلي قتل احمد بن نصر الخزاعي على القول بخلق القرآن ونصب رأسه الى الشرق فدار الى القبلة فاجلس رجلاً معه رمح او قصبة فكان كلما دار الرأس الى القبلة اداره الى الشرق »

ولم يقتل بعد الخزاعي احد . فقد اصر ابن حنبل على دفاعه عن حقه في اعتقاده واستشهد الخزاعي في سبيل ذلك وانتهت الحال بانتصار الناس في معركة صغيرة من معارك الحرية الفكرية

الاسلام والفنون والعلوم

كان المسلمون احدى حلقات الاتصال بين الاغريق القدماء واوربا الحديثة · نقلوا علوم الاغريق وفلسفاتهم الى العربية إما من الاغريقية مباشرة وإما من السريانية · وامتاز العرب من الاغريق بنزعة عملية في العلوم كان اساسها وغايتها احالة المعادن الخسيسة الى ذهب · وقد اشتغل الاغريق بالعلوم ولكن نزعتهم فيها كانت نظرية إذا استثنينا ارسطوطاليس وارخميدس · ولذلك اتجه نشاط الاغريق الى ما يوافق هذه النزعة في الادب والفلسفة · ولكن المسلمين عمدوا الى التجارب بالنار والبوتقة فعرفوا اشياء ثمينة في الكيمياء · وقد انتفعت اوربا بما احتفظ به العرب من كتب الاغريق كما انتفعت ايضاً بتلك النزعة التجريبية العملية التي اتسم بها كيمائيو العرب · وانتفعت اوربا من العرب بالنزعة الرومانية الخيالية (Romantic) التي هي اصل القصص الحديثة · فقد كانت قصص الحب والاشعار الغزلية منتشرة بين عرب الاندلس فلما انتقلت الى اوربا في جنوب فرنسا احدثت تلك الحركة « الرومانية » الخيالية التي يتسم بها جزء كبير من الادب الاوربي الحديث

يتبين للقارىء من ذلك ان اوربا كانت مدة القرون الوسطى في ظلام الجهل وان العرب في ذلك الوقت كانوا في حركة علمية صحيحة الوسائل مخطئة الغاية وفي حركة فلسفية تجديدية قائمة على

إحياء الفلسفات الاغريقية السابقة . وقد كان « فم الذهب » بطرك القسطنطينية يفخر في القرن الرابع بان كتب القدماء الوثنيين قد زالت من الارض . فلما كان القرن الثامن كان المسلمون في بغداد ينفقون الاموال الجمة في نقل هذه الكتب الى لغتهم ويفخرون بالعلم والعلماء

هذا من حيث العلم والفلسفة . فان رجال الدين بين المسلمين لم يعارضوها الا قليلا كما سنرى بعد . أما من حيث الادب وفنونه جميعها فان العرب قصروا تقصيراً شنيعاً وبعض هذا التقصير قد يرجع الى الدين الذي قيدهم ومنعهم من الانبعاث لمطالبه

وقبل أن نتكلم عن الادب يجب أن نقول ان الدين ايضاً أو الخلافة جعلت الطب أسخف لعبة لعب بها العرب في تاريخهم فقد منعوا التشريح واعتبروه مُثلة يحرّمها الدين . فلم يعرف أطباء العرب شيئاً عن جسم الانسان ووقفت معارفهم عند حد القول بقال جالينوس وقال ابقراط . وصار علم الطب بذلك أشبه شيء بعلم الحديث . حتى لقد حفزت الغريزة العلمية أحد الاطباء النصارى في العراق بان يعرف شيئاً عن الجسم فاشترى قرداً وأخذ يشرحه ويدرس الاعضاء بتشريحه قانعاً من الاصل بالبدل . ويمكن القارىء أن يستنتج أن « التشخيص » الذي لا تمكن المعالجة بدونه كان مجهولاً عند أطباء العرب

أما الأدب فان العرب تقيدوا من البدء بالقرآن فلم ينقلوا شيئاً من الأدب الاغريقي للاشارات الوثنية التي فيه عن الآلهة والمعابد ثم كانت الروح البدوية سائدة ايضاً فقوطعت الفنون الجميلة . لأن

البدوي يكره بطبيعته جميع ضروب الترف والحضارة وهو نفسه يعيش في صحراء لا يحتاج الى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش . ولذلك حرّم التصوير كما حرمت صناعة التماثيل . وصار الغناء والموسيقى لهواً يتلهى به السكارى وبلغ من احتقارهما ان منعت شهادة المغني والموسيقي أمام القاضي . وقد اكتسبنا نحن بحكم التقاليد شيئاً من هذا النظر للموسيقى والغناء فمعظم من يذهب منا لسماعهما يحتاج الى الشراب . . .

وعاد الادب العربي بعد ذلك يجتر نفسه ويعيش على الالفاظ والصنعة وجرى به ذلك القدر الذي جرى على الفنون البيزنطية حين هجرت الحياة واعتمدت على الصنعة فصارت مسخاً من الحياة. وتدهور الغناء والرقص والموسيقى الى ضروب من الخلاعة والتخنث لا يستطيع رجل له كرامة الرجال أن يشاهدها بلا اشمئزاز . دع عنك ممارستها

ولكننا نعود فنقول : هل تحريم التصوير وصناعة التماثيل يعود الى تفاسير الفقهاء للاسلام ام يعود الى الروح البدوية التي كان يتسم بها العرب ؟ وقد تجيب على ذلك بان هؤلاء الفقهاء كانوا هم أنفسهم عرباً شديدي النزوع الى البداوة

الغزالي والحرية الفكرية

ليس في مستطاع مؤلف أن يجرد نفسه من الغرض . ولذلك يحسن بنا ألا نحكم نحن على الاسلام ومقدار تقييده للحرية وانما نترك هذه المهمة لامام كبير من أئمته . وهذا الامام هو الغزالي الذي مات سنة ٥٠٥ هـ . فان كتابه « احياء علوم الدين » قد مضى عليه نحو ٩٠٠ سنة وهو عمدة رجال الدين المسلمين لم يطعن عليه أحد . والرجل أيضاً يمتاز بصراحته واخلاصه ونزاهته. فانك عند ما تقرأ حياته تشعر أنه لا يوارب وانه لو دخله شك لما تحرج من اعلانه ولو كان فيه تلفه . فهو اذا أوضح لنا الاسلام فانما يوضحه كما يفهمه رجل مؤمن به تمام الايمان . وسنعتمد على الاقتباس من نص كلامه اكثر ما نعتمد على الشرح حتى لا نخطيء التأويل

وقد كانت تتنازع الاسلام في الوقت الذي نشأ فيه الغزالي نزعتان . الواحدة سنية ومكانها بغداد ومركز ثقافتها المدرسة النظامية والاخرى شيعية ومكانها الازهر في القاهرة . ونشأ الغزالي فوجد العالم الديني مقسوماً تتنازعه هاتان النزعتان وتتهجم عليه نزعات فلسفية قوية بعضها مشوب بالزندقة السياسية التي ترمي الى هدم كيان الاسلام. وتعلم الغزالي في المدرسة النظامية في بغداد ثم صار هو نفسه مدرساً فيها . واليك ما يقوله عن نفسه مما يكشف شيئاً من مجاهدات ضميره:

« لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة وأقتحم كل ورطة وأتفحص عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لاميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنياً الا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهرياً الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ولا فلسفياً الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً الا وأحرص على العثور على سر صوفيته ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ولا زنديقاً معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان العطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزةً وفطرةً من الله تعالى وضعها في جبلتي. لاباختياري وحيلتي. حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت عني العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا »

وقلنا أنه اشتغل بالتدريس ولكن نفسه الدينية طمت به فآثر نوعاً من الرهبانية. فترك الاهل والولد والناس وأحوال الدنيا جميعها وعمد الى العزلة يناجي فيها ربه. واليك ما يقوله عن هذه المجاهدة النفسية:

« ثم لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من جميع الجوانب. ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم. فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . فتيقنت أني على شفا جرف هار واني قد أشرفت على النار ان لم اشتغل بتلافي الاحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً وأحل العزم يوماً . وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حملته فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام . ومنادي الايمان ينادي : الرحيل . الرحيل . فلم يبق من العمر الا القليل »

ثم يقول : « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وأربعين وأربعمائة وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار اذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس . فكان لا ينطلق لساني بكلمة ولا استطيعها البتة . ثم اورثت هذه العقلة في اللسان حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب »

وهذا كلام يقطر كله الاخلاص والنزاهة . ومع ذلك لم يكن الغزالي ولياً أبله يتمسح به الناس ويلبس المرقعات ويتواجد بالصيحات بل كان رجلاً مثقفاً ذكيا درس المنطق والفلسفة واكب على فهم الانجيل والتوراة فهو اذا شرح الاسلام فانما يشرحه على الوجه الذي يجب أن يُفهم عليـه وهو اذا حكم بتكفير أحد من المسلمين فانما يفعل ذلك مدفوعاً بقوة ايمانه

وماذا كان أثر هذا العالم المسلم في الشرق العربي ؟ كان أثره انه قاوم الفلسفة حتى هدمها وكفّر جميع من يدرسها وكان بعد ذلك أقوى أساس بُني عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين . حتى انتقلت الفلسفة من الشرق الى الغرب أي الى الاندلس . وليس يمكنك أن تنقم شيئاً على الغزالي من هذه الوجهة سوى انه كان ينظر نظراً دينياً ضيقاً

فاليك مثلا ما يقول عن الطبيعيين : « والطبيعيون قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . واكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الامور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ومنافع الاعضاء مطالع الا ويحصل له هـذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان . ولا سيما الانسان . الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوى الحيوان . فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه ايضاً . وانها تبطل ببطلان مزاجه . فتنعدم . ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا أيضاً فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود . فجحدوا الآخرة . وهؤلاء ايضاً زنادقة لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول وباليوم الآخر »

ومن هذه القطعة يرى القارىء أن الغزالي يفهم ما يقول تمام الفهم ويحكم على من يخالفه في رأيه الديني بالزندقة ويجزم في حكمه . والمسافة بين الحكم بالزندقة والحكم بالقتل قريبة جداً

وقد عاش الغزالي بعد ارسطوطاليس بنحو ١٤٠٠ سنة ومع ذلك لم يبخل عليه بالتكفير وعلى كل من اتبعه من فلاسفة المسلمين. واليك منه هـذه القطعة : « ثم ردّ ارسطوطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم الا انه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها . فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهم »

ومن هـذا تتبين ان اخلاص الغزالي وذكاءه لم ينفعاه شيئاً عندما اقتصر على النظر الديني الضيق . وانه لو كانت مقاليد الاحكام في يده لما تحرج من قتل من سماهم زنادقة

ثم اليك الآن النظر الديني لما نسميه نحن بالفنون الجميلة كما يفهمه الغزالي . قال :

« وليتجنب (المسلم) صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص وجميع ما تزخرف به الدنيا فكل ذلك كرهه ذوو الدين » وأيضاً : « والصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر فان كان الموضع مرتفعاً لا تصل اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة . وليعدل الى حمام آخر فان مشاهدة المنكر غير جائزة . ويكفيه أن يشوه وجهها ويبطل به صورتها »

والآن يجب أن تقف أيها القارىء وتتأمل في الآثار التي أتلفت اطراداً مع هـذه النزعة البدوية أو اتباعا لهذه النصيحة ثم

نذكر أيضاً مقدار التثبيط الذي أصاب كل من كان متهيئاً بطبعه لخدمة الفنون وترقيتها . واذا كان الغزالي على اخلاصه وفهمه يقول هذا القول في الفنون الجميلة وفي الفلسفة فماذا يقول الآخرون من رجال الدين الذين لعلهم لم يبلغوا مبلغه في الفهم أو النزاهة أو الثقافة ؟

حرية التصوف وقتل الحلاج

الدين دينان : دين رسمي تقليدي ينفذ الى القلب أو يطفو على اللسان بقوة سلطة خارجية يؤيدها السيف أو العادة . ودين ضميري ينبع من القلب يقرر صلة الانسان بالكون

فالدين الاول له أسماء عديدة من يهودية وبوذية ومسيحية واسلام والدين الثاني له اسم واحد هو الصوفية

والصوفية العربية لا تختلف من الصوفية الهندية القديمة أو من الصوفية الاوربية الحديثة في شيء . والمعقول انها يجب ألا تختلف لانها لم تنشأ على أصول تاريخية تستمد وحيها من الوسط الزماني والمكاني فتختلف باختلاف الجغرافية والتاريخ وانما تنشأ من وحي الذهن وتستصفى من حوار العقل والمنطق فاذا كان العقل في الهند ومصر وأميركا يقول بان خمسة وخمسة عشرة فانه يقول أيضاً باستنتاجات صوفية واحدة لا يختلف فيها

وعندما احتك المسلمون بالهنود والفرس وعرفوا فلسفة افلاطون نزعت أفكارهم الى الصوفية . وتسربت هذه النزعة الى أئمة الدين وصبغت الفلسفة الاسلامية

ويمكننا أن نلخص الافكار الصوفية السائدة في ما يلي :

١ ـ ان الله ليس شخصاً خارجاً عنا بل هو قوة تشمل الكون

وانه يمكننا نحن بمجاهدة الشهوات التي تربطنا بالمادة أن تتصل بهذه القوة فتحل في أنفسنا وتنكشف لنا بذلك أسرار الكون

٢ ـ ان بني الانسان كلهم اخوة لأنهم كلهم يعبرون عن هذه القوة الحالة فيهم فصلة التعامل بينهم يجب أن تكون صلة الحب لا المنافسة أو التنازع

وعلى هذين الاصلين نجد ان ابن سينا يقول مخاطباً الانسان :

وتحسب انك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الاكبر

والمسيح يقول : « لا يأتي ملكوت الله بمراقبة . ولا يقولون : هوذا ههنا أو هوذا هناك . لان ها ملكوت الله داخلكم »

ويقول محي الدين بن عربي الصوفي الاندلسي :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب انى توجهت
ركائبه فالحب ديني وايماني

ويحسن بنا أن ننقل قطعة وافية من كتب براهمة الهندويين حتى يقف منها القارىء على أصل النزعات الصوفية في الاسلام . فقد جاء في صوامي فيفيكاناندا :

« كيف ييئس ذلك الذي يرى وحدة الوجود وحدة الحياة وحدة كل شيء ؟

« الا أن هذا الانفصال بين الرجل وأخيه وبين الرجل والمرأة وبين الرجل والطفل وبين الامة والامة وبين الارض والقمر وبين القمر والشمس. هذا الانفصال بين الذرة والذرة هو علة كل الشقاء. وقد قالت الفيدانتا ان هذا الانفصال لا وجود له ولا حقيقة له . انما هو يبدو على السطح فقط . أما في قرارة الاشياء فليس سوى الوحدة واذا أنت تغلغلت الى قرارة نفسك وجدت الوحدة بين الانسان والانسان وبين المرأة والطفل ... وبين العالي والدون وبين الغني والفقير وبين الآلهة والناس . أنهم كلهم واحد . واذا ماتعمقت الفيت الوحدة أيضاً في الحيوان ... ومن وصل الى هنا فقد انقشعت عندئذ عنه الغشاوة

« اذ كيف يغشى على بصيرته ؟ فانه يعرف حقيقة كل شيء وسر كل شيء . وكيف يناله شقاء ؟ اذ ماذا يرغب وقد وصل الى قرارة كل يء حتى الله ؟ ذلك المركز . تلك الوحدة . وهذه هي النعمة الابدية والمعرفة الخالدة والوجود الدائم . في هـذا المركز وفي هذه الحقيقة لا يمكن أن نحزن على أحد ولا أن نرثي لاحد . . .

« وعندما يرى المرء أنه هو والكائن الذي لا يتناهى واحد ، وعند ماتنعدم هذه الانفصالات ويندغم الناس والملائكة والحيوان والنبات في هذه الوحدة فعندئذ يزول كل خوف . اذ ماذا نخشى ونخاف ؟ هل في قدرتي أن أقتل نفسي أو أؤذي نفسي ؟ هل في قدرتك أن تؤذي نفسك ؟

« فهنا تزول جميع الاحزان . إذ ماذا يولد الاحزان ؟ فأنا الكائن الواحد فانا الكائن الوحيد في الوجود . وهنا تزول جميع الاحساد إذ من أحسد ؟ هل أحسد نفسي ؟ فليس في الكون كله غيري أنا فلنقض اذن على هذا التفريق على تلك الخرافة التي تقول بتعدد الكائنات ؟ »

***

وانتشرت هذه الافكار الصوفية بين المسلمين ونشأت فرق اسلامية عديدة غايتها التوفيق بين المذاهب الاسلامية والنزعات الصوفية . وامتزجت الاغراض السياسية بالاغراض الدينية وصارت الدول تنشأ وتهدم بقوة هذه الفرق

ورأى خلفاء بغداد أن المبالغة في التصوف خروج من الاسلام وزعزعة للدولة القائمة عليه فكانوا لذلك يضطهدون المتصوفين . ولنضرب مثالا على ذلك معاملة الخليفة المقتدر للحلاج

فقد ذكر ابن خلكان ترجمة الحلاج ونحن نقتضبها عنه في ما يلي :

قال هو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس ونشأ بواسط والعراق وصحب ابا القاسم الجنيد وغيره . والناس في أمره مختلفون فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره . ورأيت في كتاب مشكاة الانوار لأبي حامد الغزالي فصلاً طويلاً في حاله وقد اعتذر عن الالفاظ التي كانت تصدر عنه مثل قوله : « انا الحق » وقوله : « ما في الجبة الا الله » وهذه الاطلاقات التي ينبو السمع عنها وعن ذكرها وحملها كلها على محامل حسنة وأولها ... وكان جده مجوسياً وصحب أبا القاسم الجنيد ومن في طبقته . وافتى اكثر علماء عصره باباحة

دمه . ويقال ان أبا العباس ابن سريج كان اذا سُئل عنه قال : « هذا رجل خفي عني حاله وما أقول فيه شيئاً » وكان قد جرى منه كلام في مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر فافتى بحل دمه وكتب خطه بذلك وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء فقال لهم الحلاج : « ظهري حمىّ ودمي حرام . وما يحل لكم أن تتقولوا عليّ .. وانا اعتقادي الاسلام ومذهبي السنة وتفضيل الأئمة الاربعة الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ولي كتب في السنة . . فالله الله في دمي » ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم الى أن استكملوا ونهضوا من المجلس . وحمل الحلاج الى السجن . وكتب الوزير الى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس ... فعاد جواب المقتدر بانه اذا كان قد افتى القضاه بقتله فليسلم الى صاحب الشرطة وليتقدم اليه بضربه الف سوط فان مات من الضرب والا ضربه الف سوط اخرى . ثم يضرب عنقه . فسلمه الوزير الى الشرطي وقال له ما رسم به المقتدر . وقال : ان لم يتلف فتقطع يده ثم رجله ثم تحز رقبته وتحرق جثته وان خدعك وقال لك : انا اجري الفرات ودجلة ذهباً وفضة . فلا تقبل ذلك منه ولا ترفع العقوبة عنه »

وتسلمه الشرطي ليلا وقتله سنة تسع وثلاثمائة هجرية

وسيرى القارىء أن السهروردي قتل بفتوى الفقهاء في حكم صلاح الدين لصوفيته ايضاً

الثورة على الاسلام

نرى في تاريخ الفرق الاسلامية من حيث منشأها واغراضها أنها تنقسم قسمين: فمنها تلك الفرق التي لم تكن ترمي الى أبعد من الغاية الدينية والتصوف وتتغذى من الاديان الاخرى كالمسيحية والمانوية والفلسفات الاغريقية . ومنها تلك الفرق الاخرى التي تسترت بالدين وكانت ترمي منه الى غاية سياسية لان دعاتها عرفوا أن الدعاية السياسية اذا لم ترتكز على دعائم الدين لم تثبت أمام الخلافة . ولكننا نرى شيئاً عجيباً في بعض هذه الفرق وهي أنها نزعت الى الالحاد والى هدم الاسلام . فالقرامطة مثلا لا يمكن أن نشك في أنهم أرادوا هدم الاسلام حين عاثوا في دولة العباسيين في العراق وحين هدموا الكعبة ونقلوا الحجر الاسود من مكانه . وكذلك لا يكاد يشك الانسان في أن دار الحكمة التي أسسها الحاكم بامر الله بالقاهرة كانت تعلم الناس الالحاد . ولكن مع تسليمنا بذلك يبقى عندنا شك في النية الباعثة لتعليم الالحاد . فاذا كانت هذه النية سياسية غايتها تأسيس دولة فانه لا يكاد يعقل أن هناك رجلا كان ينوي تأسيس دولة على أساس الالحاد لان الدين يدعم الدولة والالحاد يهدمها . واذا فرضنا أن القرامطة أرادوا الهدم فقط واعتمدوا على الالحاد فكيف نعلل

تأسيس دار الحكمة بالقاهرة ومؤسسها خليفة خلافته قائمة على هذا الدين الذي يريد أن يهدمه ؟

أننا نعقل أن يدعو الى الالحاد رجل فارسي تدعوه وطنيته مثلا الى الثورة على العرب والاسلام معاً فيريد هدم الخلافة ونشر الفوضى الدينية حتى تجد الفرس مجالا لاستعادة قوميتها . وهذا مانظن أنه قصد اليه عبدالله بن ميمون القداح الذي ظهر بفرقته أيام العباسيين. ونعقل أيضاً أن تعمل دولة الفاطميين في مصر على هدم دولة العباسيين في بغداد ولكن بشرط ألا تهدم الاساس القائمة هي نفسها عليه وهو الاسلام

وموضوع الفرق الاسلامية لايزال غامضاً لم يمحص للآن ولذلك سنقنع فيما يلي برواية الواقع دون أن نبحث عن العلل والبواعث

فالواقع أنه ظهرت بمصر وسوريا والعراق فرق عديدة كافحت سراً وجهراً بالسيف وبغير السيف لكي ترفع سلطان الحرية الفكرية وتهدم أساس الدين . ومعظم هذه الفرق كانت تتستر بمذاهب الشيعة للحظوة التي ينالها على الدوام عليّ بن أبي طالب في قلوب المسلمين . وكان عبدالله بن ميمون القداح أول من دعا الى تأسيس فرقة لهدم الدين وكان ابوه ملحداً يحارب الاسلام سراً بتزييف الاحاديث . ولهذه الغاية أنشأ عبدالله فرقة الباطنية وأدمج في مذهبها شيئاً كثيراً من عقائد الفرس المانوية « النور فاعل الخيرات والمنافع ، والظلام فاعل الشرور والمضار »

قال دوزي [١] عن ابن ميمون أنه أراد : « أن يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة . وأن يجمع في جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لاذلال الشعب وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها ولم ينشد ابن ميمون أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلص وانما بين المانويين والوثنيين والمتفلسفة ولم يكن يعتمد الا على الطائفة الاخيرة . واليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وخفي عقيدته وهي أن الائمة والاديان والاخلاق ليست الا ضلالا وسخرية . وأن باقي البشر — أو الحمر كما يسميهم — ليسوا أهلا لفهم هذه التعاليم . غير أنه تحقيقاً لغـايته لم يكن يمقت مؤازرتهم بل كان يلتمسها وكان دعاته الذين تعلموا كيف يخفون عواطفهم الخاصة يظهرون في أثواب مختلفة ويحادثون كل طبقة باللغة التي تروقها يقتنصون العامة والسذج بالشعوذة التي يظنونها كرامات أو يثيرون استطلاعهم بالالغاز والاحاديث الخفية . ويتحجبون أمام المخلصين بقناع الزهد والفضيلة ويتظاهرون أمام الصوفية أنهم صوفية فيكشفون عما خفي من معاني الغيب أو يشرحون الاساطير ومجازاتها

« واسفرت هذه النظم عن نتيجة مدهشة هي أن جمهوراً عظيما من الناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم »

وكان عبد الله بن ميمون يرمي الى هدم الدين بالسر والتستر

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على كتاب « الجمعيات السرية » للاستاذ محمد عبد الله عنان

ولكن فرقة القرامطة التي تكونت من اتباعه عمدت الى الجهر والعلانية فالفت عصابة قوية عاثت في الدولة العباسية واستباح أعضاؤها السفك والنهب واستحلوا الاموال والاعراض واقتحموا البيت الحرام ونزعوا كسوته واقتلعوا الحجر الاسود. وأسسوا دولة في البحرين عاشت زمناً غير طويل لان العباسيين تغلبوا عليها واستظهروا عليهم بالدين

وانتشر دعاة ابن ميمون في جميع أنحاء العالم الاسلامي حتى يقال ان عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية في مصر ينتمي في النسب اليه. واذا صح هذا النسب فلا يستبعد من الحاكم بامر الله أن يؤسس « دار الحكمة » يعلم فيها الناس الالحاد وهو النسب الذهني بينه وبين ابن ميمون

ولكن العقبة لا تزال ماثلة. فان الدولة التي تنشر الالحاد بين الناس هي دولة « فاطمية » شيعية أساسها اكبار شأن أسرة النبي. فكيف يتفق القول بأن الانبياء لم ينزل عليهم وحي ولا هم يمتازون من الناس بصلة خاصة بالله والقول بحق الفاطميين في الحكم لانهم من نسل النبي ؟

ولكن الواقع أن دار الحكمة كانت غايتها هدم سلطة الدين وكان مؤسسها الحاكم بأمر الله. فهل نعزو تأسيسها الى عرق الهوس الذي كان دائم النبض فيه والهيجان عليه ونقول انه طما به دفعة واحدة وأجبره على أن يبوح بما أضمره سائر الخلفاء الفاطميين ؟

كانت المراتب التي يتنقل فيها الطالب في دار الحكمة تسعاً. وكان الطلبة ينقسمون قسمين: العلماء والجهلاء. والعلماء هم الدعاة

المعلمون. فكان الطالب أول ما يدخل دار الحكمة يَناقش في المسائل الدينية وفي تفسير القرآن ويعلن له حينئذ أن أسرار الدين أعوص من أن يفهمها جميع الناس وأن الدعاة هم الذين اختصوا بذلك ووقفوا على هذه الاسرار ثم تؤخذ عليه العهود بألا يفشي شيئا يسمعه منهم . فاذا انتهى من هـذه المرتبة الاولى دخل في المرتبة الثانية وفيها يعلم الطالب أن جميع التفاسير الذائعة بين النـاس باطلة وأن التفسير الحق هو الذي يقوله به الائمة الذين تلقوا حقائقها من الله. وفي الثالثة يُعرّف الطالب أن هؤلاء الائمة هم أئمة الاسماعيلية وهي طائفة من فرقة الباطنية التي أسسها عبدالله بن ميمون القداح . وفي الرابعة يـعرف أن الانبياء سبعة وهم : آدم ونوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمـد (نبي الاسلام) ثم محمد بن اسماعيل الامام . وفي الخامسة يصرح للطالب بالغاية الحقيقية من هذه التعاليم وهي أن يترك الدين الاسلامي . وفي السادسة يتوسع الطالب فيقال له ان جميع الاديان كاذبة وان الفروض التي أمرت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة أريد بها اخضاع الناس . وأن جميع الاديان يجب أن تخضع لشريعة العقل والعلم ويعتمدون هنـا على أقوال أرسطوطاليس وأفلاطون وغيرها . وفي السابعة يُلقن الطالب تعاليم المانوية التي تهدم وحدانية الله وهي أقوى أساس للاسلام . وفي الثامنة تنقض كل صفات الالوهية والنبوة ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رجال الدول والعمل والسياسة الذين ينشؤون الحـكومات ويؤسسون النظم المدنية للناس . وفي المرتبة التاسعة والاخيرة يباح للطالب بان كل الاديان المنزلة حديث خرافة وان للرجل المستنير الحق في أن يرفضها

جميعاً . وأن الفلسفة تقوم مقام الدين . وأن الانبياء انما كانوا أناساً مستنيرين تفقهوا في الفلسفة

وقد عاشت الدولة الفاطمية من سنة ٩٦٩ الى سنة ١١٧١ ميلادية ماتت في نهايتها هذه النزعة الالحادية لان دار الحكمة لم تعش بعد هذه الدولة . وعادت مصر سنية يخطب خطباؤها في المساجد للخلفاء العباسيين

بعد ذلك نرى أن مركز الدعاية للتفكير الحر قد انتقل من مصر الى فارس حين نجد الحسن بن الصباح صديق عمر الخيام يبث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة . ونرى أن نظام الملك وزير العباسيين في بغداد وصديق الحسن القديم يؤسس المدرسة النظامية لكي يقاوم هذه التعاليم ويؤيد السنة التي هي عمدة الخلافة العباسية . وقد زار الحسن دار الحكمة في مصر واتصل باساتذتها وتفقه عليهم وتعاليمه خليط من المانوية والفلسفة الاغريقية . وكانت فرقته تدعى الاسماعيلية أو الباطنية وكان يعمد الى هدم الخلافة بقتل ذوي السلطان الذين يؤيدونها ويعملون لرفع شأنها . وعاشت فرقته نحو ١٥٠ سنة وهي اكبر معول لهدم الاسلام والخلافة العباسية

ولو أردنا التلخيص لقلنا ان حركة الالحاد في الاسلام نشأت في فارس وربما كانت غايتها وطنية في الاصل بهدم الخلافة وملك العرب . والحركة مصبوغة على الدوام بالمانوية وهي ديانة الفرس المنقرضة واتخذتها الدولة الفاطمية في مصر سلاحاً لمحاربة الدولة العباسية في بغداد . ووقفت الحركة عن النمو والانتشار لغلو بعض دعاتها في الحرية حتى صارت أباحية ولالتجاء بعضهم مثل القرامطة

الى وسائل العنف والاعتداء على الناس حتى أجمعوا على مقاتلتهم وابادتهم . وقد يتساءل القارىء الآن : هل كانت هذه الفرق مخلصة في دعواها الالحادية أم كانت ترمي الى غاية سياسية فقط ؟ فالجواب ان درسها فلاسفة الاغريق وديانات الفرس والمسيحيين يثبت اخلاصها . اما أنها كانت تنحو الى تأسيس الدول فليس في ذلك ما يزري باخلاص أعضائها . فقد كانت السياسة غاية من غايات المذهب الديني في دار الحكمة . وكذلك لا يعيب الحركة انحطاط القرامطة ونزوعهم الى الصعلكة وانتهاب الناس فان في كل حركة عمرانية نزعات تختلف رفعة وانحطاطا . فالحركة الصوفية مثلا تضم بين أعضائها العلماء الافذاذ أمثال الغزالي كما تضم أيضاً بين صفوفها الدراويش المتوحشين أصحاب المرقعات أكلة النار والمشعوذين بالسكاكين

اضطهاد الفلاسفة في الامم الاسلامية

قال ابن سعيد في ما رواه عن المقري يصف مكان العلم في الأندلس : « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء الا الفلسفة والتنجيم فان لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يُتظاهر بها خوف العامة. فانه كلما قيل : « فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم » أطلقت عليه العامة إسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه بالحجارة أو احرقوه قبل أن يصل امره للسلطان او يقتله السلطان تقرباً للعامة . وكثيراً مايأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن ابي عامر لقلوبهم أول نهوضه . وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن »

واحراق الكتب بالنار كان من الامور الفاشية المبتذلة في الأندلس حتى كتب الغزالي نفسها لم تنج من الاحراق عندما بلغت الاندلس لأنها لم تكن توافق المذاهب الشائعة في تلك البلاد . وكان ابن حزم أحد علماء الاندلس واكثرهم تأليفاً أخذ عليه الفقهاء بعض المآخذ وابلغوا المعتضد بن عباد أمير اشبيلية ما ينقمونه عليه فجمع كتبه واحرقها . وفي ذلك يقول ابن حزم :

دعوني من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري

فان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي

تضمنــه القرطاس إذ هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي

وينزل ان أنزل ويدفن في قبري

ومات ابن حزم سنة ٤٥٦ هـ . ويقال انه ألف نحو ٤٠٠ مجلد لا نعرف الآن منها سوى واحد او اثنين وذهب الباقي طعمة للنار

وليس يتسع المقام لسرد أخبار العلماء الذين اضطهدوا لحريتهم الفكرية وانمـا نقنع باثنين أحدهما ابن رشد في الاندلس بقرطبـة والثاني السهروردي في سوريا بحلب

كان ابن رشد فيلسوفاً جدد فلسفة أرسطوطاليس وقال بأزلية المادة وانكر خلود النفس . وألف كتاب « تهافت التهافت » يرد فيه على كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » ويرفع شأن الفلسفة ويبين مزاياها بعــد أن قضى عليها الغزالي في الشرق قضــاء لم تبعث منه للآن . فكان لا بد من أن ينتبه الفقهاء اليه وأبلغوا أمره للمنصور « ثم ان المنصور . . . نقم على أبي الوليد بن رشد وامره بأن يقيم في اليسانة وهي بلدة قريبــة من قرطبة وكانت أولا لليهود وألا يخرج عنها ونقم أيضاً على جماعة أخر من الفضلاء الاعيان وأمر بأن يكونوا في مواضع أخر واظهر انه فعل ذلك بسبب ما يدّعى عليهم أنهم مشتغلون بالحــكمة وعلوم الاوائل . وهؤلاء الجمــاعة هم أبو الوليــد بن رشد وأبو جعفر الذهبي . . . وبقوا مــدة . ثم ان جماعة من الاعيان بأشبيلية شهدوا لابن رشد انه على غــير ما نسب اليه فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة »

وماذا قال ابن رشد لكي ينجو من الفقهاء ؟ قال ان الحقيقة مزدوجة فاننا يمكننا أن ننظر نظراً دينياً فنؤمن بالبعث والخلق وخلود النفس وسائر ما يقوله الدين ونصدق كل ذلك وترتاح اليه ضمائرنا . ويمكننا أيضاً أن ننظر نظراً علمياً فلا نصدق الا ما يثبت أمام حواسنا وعقلنا

وهذا الكلام واضح الخلل لانه لا يقل عن قولنا بأن خمسة وخمسة عشرة في الصباح فاذا كان الظهر كانت عشرين . والغريب ان هذا التمحل الذي أراد منه ابن رشد أن يحقن دمه عبر اسبانيا الى فرنسا فصار القول بازدواج الحقيقة فلسفة تدرس لطلبة الدين في باريس الى ان جحدها البابا يوحنا الحادي والعشرون

ومات ابن رشد بمراكش كما اشتهى حتف أنفه سنة ١١٩٨ وهو شيخ في نحو السبعين .

أما السهروردي فحياته مأساة مختصرة . قتل في السادسة والثلاثين ومع ذلك نجهل الجريمة التي قتل من أجلها وكل ما نعرفه ان الفقهاء في حلب شكوه الى صلاح الدين واتهموه بالزندقة فأمر صلاح الدين بقتله . واليك ما يقوله عنه ابن أبي أصيبعة : « كان أوحداً في العلوم الحكمية بارعاً في الاصول الفقهية مفرط الذكاء جيد الفطرة فصيح العبارة لم يناظر أحداً الا بذه ولم يباحث محصلا الا أربى عليه وكان علمه اكثر من عقله ... » وكان الشيخ فخر الدين يقول : « ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ولم أجد أحداً مثله في زماني الا أني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه ان يكون ذلك سبباً لتلفه » قال : فلما فارقنا شهاب الدين السهروردي من الشرق وتوجه الى

الشام أتى الى حلب وناظر بهـا الفقهاء ولم يجاره أحد . فكثر تشنيعهم عليه . فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي بن الملك النـاصر صلاح الدين يوسف بن أيوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجري بينه وبينهم من المباحث والكلام . فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيناً عنده مختصاً به. فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين

وقالوا : « ان بقي هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد أي ناحية كان بها من البـلاد » وزادوا عليه أشـياء كثيرة من ذلك . فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً في حقه بخط القاضي الفاضل وهو يقول فيه : ان هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتـله ولا سبيل أن يطلق ولا يبقى بوجه من الوجوه . ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك وأيقن أنه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار أن يترك في مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى أن يلقى الله تعالى . فـفُعل به ذلك وكان في أواخر سـنة ٥٨٦ هـ . بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة

هـذه هي اللطخة السوداء التي دنس بهـا صلاح الدين تاريخه وأثبت فيها ان رأيه كان دون شجاعته وانه على الرغم من تلبسه بحضارة المصريين والسوريين عاش ومات وهو كردي النفس يغلب طبعه تطبعه

منشور لمنع الفلسفة

لما نفي ابن رشد الى اليسانة أذاع المنصور خليفة الاندلس في ذلك الوقت هـذا المنشور التالي بين سكان الاندلس ينهاهم فيه عن الاشتغال بالفلسفة . وهذا نص المنشور بحروفه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الاوهام . وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الافهام . حيث لا داعي يدعو الى الحي القيوم ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم . فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق . مسودة المعاني والاوراق . بُعدها من الشريعة بُعد المشرقين . وتباينها تباين الثقلين . يؤمنون ان العقل ميزانها والحق برهانها . وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً . ويسيرون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم بأن الله خلقهم للنار . وبعمل أهل النار يعملون . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم . ألا ساء ما يزرون . ونشأ منهم في هـذه السمحة البيضاء شياطين انس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا أنفسهم وما يشعرون . يوحي بعضهم الى بعض خوف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون . فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب . وأبعد عن الرجعة الى الله والمآب . لان الكتابي يجتهد في ضلال ويجدّ في كلال . وهؤلاء جهدهم التعطيل . وقصاراهم التمويه والتخييل . دبت عقاربهم في الآفاق

برهة من الزمان الى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قدمنا لهم على شدة حروبهم وعفا عنهم سنين على كثرة ذنوبهم . وما أملي لهم الا ليزدادوا أثماً . وما أمهلوا الا ليأخذهم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علماً . وما زلنا وصل الله كرامتكم نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم على بصيرة الى ما يقربهم الى الله سبحانه ويدنيهم . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم وُقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال . موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال . ظاهرها موشح بكتاب الله . وباطنها مصرح بالاعراض عن الله . لبس منها الايمان بالظلم . وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم. مزلة للاقدام . وهمٌ يدب في باطن الاسلام. أسياف أهل الصليب دونها مفلولة . وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة . فانهم يوافقون الامة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم . ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم . فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين . ونكتة سوداء في صفحة النور المبين . نبذناهم في الله نبذ النواة . وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم في الله كما انا نحب المؤمنين في الله . وقلنا اللهم ان دينك هو الحق اليقين وعبادك هم الموصوفون بالمتقين . وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك وعميت ابصارهم وبصائرهم عن بيناتك . فباعد اسفارهم . وألحق بهم اشياعهم حيث كانوا وانصارهم . ولم يكن بينهم الا قليل وبين الالجام بالسيف في مجال ألسنتهم . والايقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم . ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون . ثم طردوا عن رحمة الله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون . فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على

الايمـان. حذركم من السموم السارية في الابدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب اربابه . واليها يكون مآل مؤلفه وقارئه وما به . ومتى عثر منهم على مجد في غلوائه . عم عن سبيل استقامته واهتدائه . فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف . ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . أولئك الذين حبطت اعمالهم . اولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين اصقاعكم ويكتب في صحائف الابرار تضافركم على الحق واجتماعكم . انه لمنعم كريم » اهـ

وقضت الاقدار ان ينهزم ابن رشد وأن تنهزم معه الفلسفة في الاندلس . ولكن لنا ان نتساءل : هل كان ينقرض المسلمون من الاندلس لو ان الناس كانوا احراراً في تفكيرهم يتطورون ولا يجمدون ؟

قصة القهوة

منذ ثلاث او اربع سنوات قررت حكومة الولايات المتحدة منع الخمور بيعها وشراؤها وتناولها . ومنذ نحو عام منعت الحكومة المصرية بيع السكوكايين وعاقبت من يحمله لكي يتناوله بنفسه او لكي يبيعه لغيره . وفي مصر لا يجوز بيع العقاقير الطبية وتحضيرها الا للصيادلة . ولكن هذا التحريم يحور على محور مدني أساسه في كل هذه الحالات التي ذكرناها ان هذه الاشياء سامة فيجب ألا تباع أو تباع فقط برخصة خاصة . فالنظر مدني قاعدته التي يرتكز عليها مصلحة الجماعة المدنية الدنيوية بحيث اذا ثبت في أي وقت ان هذه المصلحة لا تعارض وتناول هذه المحرمات يسقط تحريمها . ومعنى كلامنا ان هذه الحكومات لا تحرم تناول هذه الاشياء كما يحرم الدين الموسوي على اليهود تناول الخنزير او كما يحرم الدين الهندوي على الهندويين تناول لحم البقر . لان هذين التحريمين الاخيرين يرجعان الى سلطة آلهية تأمر فتجزم في الامر ولا تعلل . وعلى المؤمنين طاعتها بحيث اذا خالفوها تعرضوا للهرطقة او الزندقة . ثم في الحالات الاولى يمكن تبديل الشرعة او الغاؤها لانها شرعة مدنية قائمة على ارادة الامة وهي أشبه بعقد اجتماعي في موضوع بعينه . أما في حالة لحم الخنزير أو لحم البقر فان الشرعة لا يمكن مسها بأي تنقيح أو تبديل

وفي ما يلي سنروي محاولات الفقهاء في مكة والمدينة والقاهرة في تحريم القهوة تحريماً يستند الى الدين كما حرم لحم الخنزير. وروايتنا منقولة عن كتاب لعبد القادر محمد الانصاري من أهل القرن العاشر للهجرة. وسنترك المؤلف يروي القصة بلسانه وكل مهمتنا اختصار الكتاب في جملة صفحات. فانا سنحذف ولكننا لن ننقح. قال المؤلف:

« اعلم ان القهوة هي الشراب المتخذ من قشر البن أو منه مع حبه المحمص أي المقلي. فمن قائل بحلها يرى انها الشراب الطهور المباركة على أربابها الموجبة للنشاط والاعانة على ذكر الله تعالى وفعل العبادة لطلابها. ومن قائل بحرمتها مفرط في ذمها والتشنيع على شرابها. وكثر فيها من الجانبين التصانيف والفتاوى. وبالغ القائل بحرمتها فادعى انهـا من الخمر وقاسها به وساوى. وبعضهم نسب اليها الاضرار بالعقل والبدن الى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية الى الجدال والفتن وحصول ما أدى الى منازعات ومحن بمكة والقاهرة والمنع من بيعها وكسر أوانيها الطاهرة بل الى تعزير باعتها بالضرب وغيره من غير حجة ظاهرة والى تأديبهم بضياع مالهم واحراق القشرة المتخذة منه في كرّات متواترة. وبالغ الذامّ لها ان شاربها يحشر يوم القيامة ووجهه اسود من قعور أوانيها. وكثر التقاطع والتدابر بين الفريقين والذم لمن يعانيها »

***

« وأما مبدأها فقال الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ما لفظه:

« ان الاخبار قد وردت علينا بمصر أوائل هذا القرن (القرن

العاشر للهجرة) بأنه قد شاع في اليمن شراب يقال له القهوة تستعمله المشايخ الصوفية وغيرهم للاستعانة به على السهر في الاذكار التي يعملونها على طريقتهم المشهورة ثم بلغنا بعد ذلك بمدة ان ظهورها وانتشارها فيه كان على يد أبي عبد الله المعروف بالذبحاني. وسمعنا انه كان متولياً بوظيفة تصحيح الفتاوى في عدن. وهي وظيفة كانت بها اذ ذاك تعرض على صاحبها الفتاوى فيقر ما يراه صواباً ويكتب تحتها « صح » بخطه وينبه على ما يرى اصلاحه. وسبب اظهاره لها ما سمعناه ايضاً انه كان عرض له أمر اقتضى الخروج من عدن الى بر العجم فأقام به مدة فوجد أهله يستعملون القهوة ولا يعلم لها خاصية ثم عرض له حين رجع الى عدن مرض فتذكرها فشربها فنفعته فيه فوجد فيها من الخواص انها تذهب النعاس والكسل وتورث البدن خفة ونشاطاً. فلما سلك طريق التصوف صار هو وغيره من الصوفية بعدن يستعينون بشربها على ما ذكرناه ثم تتابع الناس بعدن والفقهاء والعوام على شربها للاستعانة بها على مطالعة العلم وغيره من الحرف والصناعات ولم تزل في انتشار »

* * *

« واما اول ظهورها بمصر فقال ابن عبد الغفار انها ظهرت في حارة الجامع الازهر في العشر الاول من هذا القرن (العاشر) وكانت تشرب في نفس الجامع برواق اليمن يشربها فيه اليمانيون ومن يسكن في رواقهم من اهل الحرمين وكان المستعمل لها الفقراء المشتغلون في الرواتب من الاذكار والمديح على طريقتهم وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة يضعونها في ماجور كبير من الفخار

الاحمر ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة ويسقيهم الايمن فالايمن مع ذكرهم المعتاد عليه غالباً وهو : لا اله الا الله الملك الحق المبين . وكان يشربها معهم موافقة لهم من يحضر الرواتب من العوام وغيرهم . قال : وكنا ممن يحضر معهم وشربناها فوجدناها تذهب الكسل والنعاس كما قالوا بحيث انها كانت تسهرنا معهم ليالي لا نحصيها الى ان نصلي الصبح مع الجماعة من غير تكلف وكان يشربها معهم من اهل الجامع وغيرهم خلق لا يحصى . ولم يزل الحال على ذلك وشربت كثيراً في حارة الجامع الازهر وبيعت بها جهراً في عدة مواضع ولم يتعرض احد ولا أنكر شربها مع اشتهارها بمكة وشربها في نفس المسجد الحرام وغيره بحيث لا يعمل ذكر او مولد الا بحضورها . ثم حدث الانكار عليها بمكة الشريفة في سنة سبع عشرة وتسعمائة وكان القائم في ذلك رجلين اعجميين اخوين كانا مشهورين بالحكمة وكان لهما فضيلة في المنطق والكلام والطب ويدعيان مرتبة في الفقه . وهما الرجلان اللذان رحلا الى مصر في اواخر دولة الغوري واقاما بها حتى قدم اليها السلطان المظفر سليم شاه فقتلهما لما كانا يرميان به مما الله اعلم بحقيقته . واعانهما على القيام في امرهما شمس الدين الخطيب نقيب قاضي القضاة سري الدين ابن الشحنة واناس آخرون . فاغرى شمس الدين الخطيب الامير خاير بك معمر باش مكة ومحتسبها اذ ذلك على إبطالها من الاسواق ومنع الناس من شربها وقرر عنده انها موصوفة بتلك الصفات القبيحة ورغبه في ذلك جداً وحمله على ان يعقد له مجلساً عنده . وانفصلوا منه على القول بحرمتها وكتبوا بذلك

محضراً انشأه لهم شمس الدين الخطيب وارسلوه الى مصر وارسلوا معه سؤالا انشاء الحكيمين والخطيب وطلبوا مرسوماً سلطانياً لمنعها بمكة . ولما انصرفوا من عقد المجلس شهر الامير خاير بك النداء بمنع شربها وشدد في ذلك حتى انه عزر جماعة من باعتها وكبس مواضعهم واخرج ما وجده فيها من قشر البن واحرقه في وسط المبيع . فبطلت حينئذ من السوق وكان الناس يشربونها في بيوتهم اتقاء شره لانه بلغه عن شخص انه شربها فعزره وطاف به في الاسواق

« ثم بعد ذلك ورد المرسوم السلطاني ولكن لا على وفق غرضهم . فتجاسر الناس على شربها لا سيما وقد بلغهم انها لا تمنع في مصر التي هي بلدة السلطان ولم ينكرها احد من علمائها . وفتر خاير بك عن التسلط على الناس بسببها واستمر الحال على ذلك . وقال بعض اهل المجون :

« قهوة البن حرمت فاحتسوا قهوة الزبيب
« ثم طيبوا وعربدوا وانزلوا في قفا الخطيب

« وفي سنة تسع وثلاثين وتسعمائة (٩٣٩ هـ) رُفع للشيخ العلامة واعظ العصر شهاب الدين احمد السنباطي سؤال هـذه صورته : ما قولكم رضي الله عنكم في شراب يسمونه القهوة يجتمع عليه الجماعة ليشربوه ويزعمون انه مباح مع انه يترتب عليه مفاسد كثيرة . فهل ذلك جائز ام حرام ؟ فاجاب بحرمتها وانها مسكرة

« وفي سنة ٩٤١ تعرضوا للشيخ في مجلس وعظه بذكر القهوة فافتى بحرمتها وصمم على ذلك في مجالسه بالجامع الازهر . فتعصب

جماعة من القوم لما سمعوا منه ذلك وخرجوا الى بيوتها من تلقاء انفسهم بغير امر حاكم بل لمجرد الحفلات العامية وكسروا اوانيها وضربوا جماعة ممن كان هناك . فقام بسبب ذلك فتنة وتعصيب ممن يقول بالحل والحرمة . واحتاج الامر الى الاستفتاء ايضاً . واتصل (الخبر) بقاضي مصر الشيخ محمد بن الياس الحنفي فسأل عن حكمها جماعة من علماء القاهرة المفتين بها واعتمد على افتاء من قال بحلها من العلماء المعتبرين . ثم استظهر بعد ذلك فامر بطبخها في منزله وسقى منها جماعات بحضرته وجلس يتحدث معهم ليختبر حالهم فلم ير فيهم تغييراً ولا شيئاً منكراً فاقرها على حالها

***

« وفي سنة (٩٤٥) بينما جماعة في بيوت القهوة يستعملونها في شهر رمضان بعد العشاء وافاهم صاحب العسس اما من تلقاء نفسه واما بأمر أوحي اليه وأخرجهم منها بهيئة شنيعة بعضهم بالحديد وبعضهم مربوط بالحبال فباتوا في منزل السوباشاه . ثم أطلقوا صباحا بعد أن ضرب كل واحد منهم سبع عشرة ضربة . ثم لم يلبثوا أن ظهر الحق وعاد الحال الى ما كان عليه أولا بعد يومين أو نحوهما

« وورد في سنة (٩٥٠) في موسم الحاج صحبة الركب الشامي الى مكة حكم سلطاني بمنع القهوة وابطالها والزام باعتها بمنع التسبب فيها وابطال محالها ... ثم تعددت بيوتها على غير مبالاة من الولاة وشربت في تلك السنة جهاراً . وكذلك منعت بالقاهرة مراراً فلم تطل المدة وعلا منارها ولم يزل أمرها ظاهراً وتعداد بيوتها وافياً مشتهراً . ويشربها العلماء والصلحاء وأماثل الفقهاء ويقر عليها أهل

الافتاء والتدريس ويواظب على شربها من وصف بالفضل . . والذي أقوله ان الحق الذي لا مراء فيه ولاشبهة تعارضه وتنافيه أنها في حد ذاتها حلال وبها نشاط على العبادة لا يشوبه نقص أو اختلال »

* * *

وحسب القارىء هذه المختارات من الكتاب وكلها تدل على ان معظم الفقهاء والحكام حاولوا الى منتصف القرن العاشر الهجري تحريمها في مصر والحجاز مستندين في ذلك الى الدين ولكن بيوت القهوة « تعددت على غير مبالاة من الولاة » وأبى الجمهور أن يتقيد بفتاوى الفقهاء أو تنطع الحكام واحتفظ بحريته في تناول الطعام والشراب . وحرية الاكل من الحريات التي قد نستهين بها ولكن اذا اعتبرنا المبدأ نجدها أنها ليست دون الحريات الاخرى قدراً لانها تستند في الواقع الى حرية الفكر

الجمهور والاضطهاد

موضوع هذا الكتاب هو اضطهاد الحكومات للناس . ولكن قد يكون الجمهور هو الباعث للحكومة على الاضطهاد كما رأينا في الاندلس . وقد يعمد الجمهور أيضاً الى أن يأخذ الامر بيده مباشرة ويضطهد الخارجين على عاداته في الدين أو غير الدين في حين تكون الحكومة متسامحة راضية بوجود هؤلاء الخارجين

فالبيض في الولايات المتحدة يضطهدون السود ويقتلونهم ولا تقوى حكومات الولايات على حماية السود منهم . والرومانيون يضطهدون اليهود في رومانيا كلما سنحت فرصة لانتهاب أموالهم . وكان الاتراك الى وقت قريب يختصرون عدد الارمن بالسيف ويمنعونهم من التزايد المفرط . وفي كل يوم نسمع عن مشاجرات تقع بين الهندويين والمسلمين في الهند وتنتهي أحيانا بقتل عدد كبير من الطرفين

وهذا الاضطهاد لا تمكن معالجته بالقوانين فانه قائم على درجة الثقافة الفاشية في الامة ومقدار ما فيها من تغرضات وعصبيات قديمة . لان القوانين تعجز عن تأديب الجمهور اذا لم يكن من ورائها رأي عام يدعمها ويؤيدها . فاذا كان هذا الرأي العام يروّج التعصب ويدعو الى الاضطهاد فان الحكومة بكل ما فيها من نيات حسنة لا تستطيع الاصلاح الا بنشر الثقافة وقشع غيوم الخرافات من

رؤوس الجمهور . وهذه طريقة بطيئة ليست فيها سرعة الامر والنهي التي تتسم بها القوانين

وماذا يمكنك مثلا ان تقول في قصة الطبيب المسلم الذي يرفض ان يعلم غير المسلمين ؟ ليس في مستطاعك ان تتهم الاسلام بتعصبه لان هذا التعصب قد يرجع الى مزاجه الشخصي اذ لم يقل الاسلام قط ان العلم حرام على غير المسلمين . فقد ذكر « طبقات الاطباء » عن رضي الدين الرجبي الطبيب ايام الملك العادل انه « لم يقرىء في سائر عمره من اهل الذمة سوى اثنين لا غير . . . بعد ان اثقلا عليه بكل طريق وتشفعا عنده بجهات لا يمكن ردها »

وكذلك لا يمكننا ان نخوض في موضوع كراهة الامم المختلفة لليهود . لان هذه الكراهة قائمة على عصبيات واغراض قديمة تحتاج الى تربية طويلة لقشعها عن العقول

ولكن يجب ان نذكر ان الحكومات مؤلفة من الجماهير . وقد تكون من صفوة الجماهير ولكنها تبقى مع ذلك متأثرة بروحها تحسب لها وتقدر عواقب غضبها وتتملقها باضطهاد من ترغب في اضطهاده . وقد اضطهد دريفوس حديثاً في فرنسا لفرط ضغط الجمهور الذي يكره اليهود للحكومة . وكانت حكومات الاندلس تضهد اليهود وتضطهد العلماء تملقاً للجمهور

وبهذه المناسبة يحسن بنا ان نذكر المذبحة التي أصابت نحو أربعة آلاف يهودي في اسبانيا سنة ٣٥٩ هـ على أيدي جمهور جاهل استفزته العاطفة الدينية . فقد كان باديس أمير غرناطة قد استوزر يهودياً يدعى ابن نغزالة . فالف ابو اسحق الفقيه قصيدة حض

فيها قبيلة صنهاجة على اليهود وأغراها بقتلهم. قال نفح الطيب: « وهي قصيدة طويلة. فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير المذكور (ابن نغزالة) فاراح الله البلاد والعباد ببركة هذا الشيخ (ابو اسحق الفقيه) الذي نورُ الحق على كلامه باد »

ويقول أبو اسحق الفقيه هذا في قصيدته المشئومة:

ألا قل لصنهاجة أجمعين   بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي ثقة مشفق   يعد النصيحة زلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة   تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً   ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا   وتاهوا وكانوا من الارذلين

ويقول في الاغراء بقتل الوزير وطائفة اليهود:

فبادر الى ذبحه قربة   وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه   فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عراهم وخذ مالهم   فانت أحق بما يجمعون

فهذا مثال من تعصب الجماهير وسفالة أديب انتهت بمأساة فظيعة وقد كان جمهور الاندلس أغبي جمهور في العالم الاسلامي كله قد ركبه الفقهاء واستغلوه لمصالحهم مع أن حكام الاندلس وأمراءه كانوا على غاية بعيدة من التسامح. وذلك في حين أن الجماهير المسلمة في الشرق كانت مسالمة موادعة. وحياة المعري وحدها تكفي برهانا على ذلك، فان هذا الاديب العظيم عاش الى الشيخوخة الهنية في بلدته « المعرة » ولم يلاق من الجمهور أو الحكومات المسيطرة عنتاً مع ما كان يمكن ان يؤاخذ عليه ويكون كافياً للحكم عليه بالقتل. فقد شك في الدين

وأعلن شكوكه في أبيات عديدة تنوقلت عنه وشاع عنه الكفر والالحاد ومع ذلك لم ينله أذى . ويحسن بنا هنا أن ننقل شيئاً من أقواله لكي يعارضها القارىء بعقلة اليهود في أسبانيا . فالدين الذي كان يخضع لسلطانه ذلك الاديب السافل ابو اسحق الفقيه هو نفسه الدين الذي كان يخضع لسلطانه ابو العلاء المعري . وانما اختلفت الثمرة لاختلاف التربة

فما يروى عن المعري ويؤاخذ عليه قوله :

قلتم لنا صانع قديم   قلنا صدقتم كذا نقولُ
ثم زعمتم بلا زمان   ولا مكان الا فقولوا
هذا كلام له خبيءٌ   معناه ليست لنا عقول

وقال عنه ياقوت : « كان متهماً في دينه يرى رأي البراهمة لا يرى افساد الصورة ولا يأكل لحماً ولا يؤمن بالرسل ولا بالبعث والنشور »

ومما يؤاخذ عليه المعري قوله يخاطب الله :

أنهيت عن قتل النفوس تعمداً   وبعثت تأخذها مع الملكين
وزعمت ان لها معاداً ثانياً   ما كان أغناها عن الحالين

وأيضاً قوله :

اذا ما ذكرنا آدماً وفعاله   وتزويجه ابنيه فبنتيه في الخنا
علمنا بان الخلق من نسل فاجر   وان جميع الخلق من عنصر الزنا

وأيضاً قوله :

هفت الحنيفة. والنصارى مااهتدت   ومجوس حارت واليهود مضلله
اثنان أهل الارض : ذو عقل بلا   دين وآخر ديّن لا عقل له

فكل هذه أقوال صريحة في الكفر لم يتحرك لها الجمهور او السلطان الا حركة ضعيفة جداً نرى بعضها في بيتين من قصيدة القاضي أبي جعفر الزوزني يقول فيها :

كلب عوى بمعرة النعمان لما خلا عن ربقة الايمان
أمعرة النعمان ما انجبت اذ اخرجت منك معرة العميان

وقد مات المعري سنة ٤٤٩ هـ

فجمهور الشرق كان قد تربى ونشأ على التسامح وكان فقهاؤه قد تثقفوا بعض الشيء بثقافة الفلاسفة والادباء فلم يجدوا حرجاً في أقوال المعري يستوجب العقوبة الصارمة . في حين ان جمهور الاندلس كان مطية الفقهاء يوجهونه الى أية ناحية يريدونها . والشرق والغرب كانا يؤمنان في ذلك الوقت بدين واحد هو الاسلام

ويجب ألا ننسى أيضاً ان السهروردي قتل بامر صلاح الدين بعد وفاة المعري بنحو ١٤٠ سنة . ولعله لم يقل نصف ما قاله المعري من التنديد بالاديان والحمل عليها . ولكن صلاح الدين كان رجلاً كردياً غير مثقف فاستطاع الفقهاء أن يؤثروا فيه

وخلاصة هذا الفصل :

(١) ان تهور الجماهير وتعصبها لا يمكن ان يعزى إلى الدين . لان الدين يحتاج الى ثقافة لا تصل اليها الجماهير . وهذه الجماهير تتأثر باعتبارات عديدة الدين واحد منها فقط . فالفرنسيون مثلاً يكرهون اليهود الآن لاعتبارات أغلبها وطنية تجارية

(٢) ان التعصب يرجع إلى القابض على السلطة الدينية وفهمه للدين يختلف باختلاف ما هو حاصل عليه من الثقافة . فالدين

المسيحي الذي تؤمن به أوربا الآن والذي يقول المؤمنون به بالتسامح هو نفسه الدين الذي كان يقول المؤمنـون به بعدالة أحكام محكمة التفتيش في القرون الوسطى . والاسلام الذي تسامح في وجود المعري هو نفسه الذي توسل به الفقهاء لقتل السهروردي

الجزء الثاني

حرية الفكر في العصور الحديثة

ارهاصات النهضة الاوربية

الارهاص لفظة شرعية معناها تلك الخوارق أو الكرامات التي يأتيها النبي قبل أن تبلغ نبوته سن الرشد أي قبل أن يستتم حقوق الدعاية الى دينه الجديد . ولكل حركة اجتماعية في العالم ارهاصات تتقدمها وتدل عليها وتكاد تنطق بها . فالثورة الفرنسية الكبرى ارهاصات واضحة في صيحات فولتير وديدرو وروسو . ونحن الآن نعيش على أبواب انقلاب اجتماعي خطير نرى ارهاصاته في التقدم الآلي للصناعات وفي الدعاية الاشتراكية التي هي نتيجة هذا التقدم وأيضاً في تقدم البيولوجية التي ستتحكم في المستقبل القريب في نظام الزواج والعائلة

والآن يجب أن نلقي نظرة على القرون الوسطى في اوربا لنتبين فيها ارهاصات النهضة الكبرى التي يتواضع المؤرخون على انها بدأت في ختام القرون الوسطى سنة ١٤٥٣ عند سقوط القسطنطينية في يد الاتراك

ولقد سميت القرون الوسطى بحق القرون المظلمة . فهي تمثل العصور التي ساد فيها الجهل والتعصب اوربا والتي زالت فيها ثقافة الاغريق . وصار العلم أو مسخ العلم مقصوراً على الرهبان في الاديار وكانت معارف هؤلاء مقصورة على الآداب اللاتينية وعلى شيء قليل من نظريات اقليدس وعلى ما ترجم من العربية الى اللاتينية عن

ارسطوطاليس وافلاطون . وأولهما طبيعي وثانيهما الهي . وكان اساتذة تلك العصور يجهدون أنفسهم في رياضة الفلسفة على ان تكون مطية للدين . وقد ريضت فلسفة ابن رشد وفلسفة تلميذه ابن ميمون لهذه الغاية . وكان علم الرهبان قائماً على النقل والجدل والالفاظ بعيداً عن الابتكار يعنى اكبر عناية بدرس آباء الكنيسة ويهمل الاهمال كله اية نزعة نحو الاستقلال في الفكر . والنزعة هي كل شيء في ثقافة الامم فهي التي تقرر وجهتها وتعمل لرقيها أو انحطاطها وتقديم العلم أو تأخيره . فاذا كانت النزعة في الامة هي النقل والجدل اللفظي فانها لا تكتشف شيئاً في عالم الفكر واذا صادفها اكتشاف لم تقصد اليه لم تنتفع به . ففي القرن الثالث للميلاد مثلا عرفت البوصلة وعرفت العدسة . ومع ذلك بقي هذان الاكتشافان عدة قرون يسمع بهما الناس ولا يحاول أحد أن يضع عنهما « نظرية » وعرفت أشياء مهمة مدة القرون الوسطى عن التشريح والفلك والنبات ولكن لم يحاول أحد أن يجمع هذه الاكتشافات في نظريات . والنظرية في العلم اداة اقتصادية لا يستهان بها تجمع المعارف المشتتة في قاعدة واحدة وتفتح الباب لايجاد قاعدة اخرى فتتقدم بذلك العلوم . ولكن نزعة القرون الوسطى كانت كما قلنا قائمة على النقل والمعارف تجمع وتحفظ لخدمة الدين

وكان العرب في اسبانيا قد اشتغلوا بالكيمياء واعتمدوا على التجربة في خلط العناصر والمركبات فاهتدوا الى معرفة جملة أشياء كيماوية. وكانت شهوة المال هي الغاية من هذه التجارب التي كانت ترمي الى احالة المعادن الخسيسة الى ذهب . وانتقلت عدوى هذه الشهوة

من اسبانيا الى اوربا فاخذ العلماء والمشعوذون يشتغلون بالتجارب العلمية فكانت هذه نزعة جديدة اكتسبتها اوربا من عرب الاندلس. ونحن نرى أثر هذه النزعة في روجر بيكون (مات سنة ١٢٩٢) وهو أول عالم من القرون الوسطى نحس فيه بالروح العلمية . فقد قال عن العلوم التجريبية : « ان جميع العلوم ما عدا هذا العلم اما انها تستعمل الجدل لاستنتاج النتائج مثل العلوم النظرية واما انها هي نفسها استنتاجات عامة ناقصة . والعلم التجريبي وحده يحقق الى درجة الكمال صحة ما يمكن الطبيعة أو الفنون أو الخداع عمله . فهو وحده يعلمنا كيف نقف على غباوات السحرة كما يعلمنا المنطق كيف نميز بين الصحيح والخطأ من الجدل »

أليس هذا ارهاصا بالنهضة العلمية ؟ ولم يقنع بيكون بالكلام فانه انكب على بواتقه يحلل ويخلط الاجسام ويقال انه صنع نوعا من البارود استخرجه من الفحم وتنبأ باختراع البواخر والميكرسكوبات . وكان يحض الطلبة في اكسفورد على تعلم العربية والاغريقية والعلوم الطبيعية مما استحق لاجله أن يتهم بمزاولة السحر وان يحبس عليه ١٤ سنة بحكم البابا والكهنة

هذا في العلم . ولكن النهضة الدينية كان لها ارهاصها ايضاً في شخص ويكلف الذي مات سنة ١٣٨٤ فانه ترجم التوراة الى الانجليزية وتجرأ على أن يضع مبدأ خطراً خلاصته ان كلمة الانجيل هي أساس المسيحية ولا عبرة بما يقوله الكهنة مما يخالفها

وبيكون وويكلف كلاهما انجليزي ولكن الشرارة التي قدحاها

استطارت الى اوربا . ففي سنة ١٤٠٠ نجد كاهناً بوهيمياً في براغ ينشر على الناس مذهب ويكلف . هذا الكاهن هو جون هس الذي قتل سنة ١٤١٥ . وعلم البابا بنشاطه في الدعوة الى مذهب ويكلف فامر في سنة ١٤١٠ باحراق كتب هذا الراهب الانجليزي وحكم على هس بالحرم . وحدث في سنة ١٤١٥ انه رحل الى كونستانس (في المانيا) ليشترك في مناقشات المجمع الكنسي . فلما بلغ المدينة قبض عليه الكهنة وحاكموه وقضوا عليه بالقتل لهرطقته . فقتل دون أن يستغفر أو يبدي أقل ضعف . واحرقت كتبه أمامه قبل قتله

ومما هو ذو مغزى أن ثورة ويكلف وثورة هس لم تقتصرا على الاصلاح الديني فقط . فان الاول أحدث ثورة بين الفلاحين في انجلترا . والثاني أحدث حركة وطنية في بوهيميا . لان العين اذا انفتحت للفساد في احدى نواحي النظام الاجتماعي امتد بصرها لسائر النواحي . والنفس اذا نزعت نزعة النقد للدين لم يرضها التسليم بسائر الفضائح في الحكومة أو التفاوت الاقتصادي أو غير ذلك . ولذلك نجد أن النهضة الاوربية لم تكن نهضة دينية فقط بل كانت نهضة أدبية وعلمية وعملية أيضاً . وانما كان أساس هذه النهضات الرغبة في اصلاح الدين وكف رجاله عن أذى الناس . ومتى تجرأ الانسان على أن يقف في وجه آلهته لم يبال بعد ذلك بالقيود بل سرعان ما يحطمها وينطلق حراً قد خلع عنه مأثور السلف وأخذ ينظر بعين النقد لكل شيء

النهضة الاوربية

شملت النهضة الاوربية جملة مناحي النشاط الفكري . فقـد كان لسان حال الناهضين في الدين يقول : « انشدوا الحق في الـكتاب المقدس ولا تبالوا بالـكهنـة والـكنيسة »

ولسان حال الناهضين في الادب يقول : « انشدوا الحقيقـة في كتب القدماء وخاصة الاغريق ولا تبالوا بالـكتاب المقدس »

ولسان حال الناهضين في العلم يقول : « دعنـا مما حفظناه عن ارسطوطاليس وجالينوس واعمد الى بوتقتك وجرّب وخذ مشرطك وشرّح »

وبعبـارة أخرى نقول ان النهضة بانواعها قـد استقت روح التجديد من ثلاثة مصادر :

١ — الادب وفنونه من الاغريق القدماء . وقد ابتدأت دراسة الاغريقية بعد ان ماتت في اوربا نحو الف سنة في ايطاليا ثم انتشرت عند ما استولى الاتراك على القسطنطينية فهجرهـا الرهبان وكانوا يدرسون هذه اللغة

٢ — العلوم التجريبية من عرب الاندلس

٣ — دراسة الـكتاب المقدس من العبرانية والاغريقية

ولـكن كان هنـاك للنهضة دافع آخر يدفعها الى العمل نعني به سد طريق التجارة بين اوربا وآسيا باستيلاء الاتراك على سوريا ومصر

فان مصر وسوريا عمهما الخراب لسد هذه الطريق وعدم انتفاعهما بمرور التجارة بين القارتين . ولكن اوربا انتفعت بغباوة الاتراك فعمدت الى اكتشافاتها الجغرافية العظيمة . ويمكن ان يقال ان هذه الاكتشافات كانت نتيجة النهضة . وهذا صحيح . ولكنها كانت ايضاً دافعاً آخر يجرىء الناهضين في العلم والادب والفلسفة والدين على التفكير الحر الجريء . فان الراهب العالم الذي كان يدرس كتب القديس أوغسطين وينظر اليها نظرة الاحترام التي ينظر بها إلى الكتب المقدسة تزعزع إيمانه به وبغيره من القدماء عند ما رأى انه كان يجزم بان القول بوجود ناس في الجهة الاخرى من الكرة الارضية هرطقة لان هذه الجهة لم يرَ سكانها المسيح الذي جاء لجميع البشر . ألم يرَ هو ان كولمبوس قد اكتشف اميركا سنة ١٤٩٢ وان فاسكو دي غاما قد بلغ جزائر الهند سنة ١٤٩٩ ؟

ولم يكن الشك في آباء الكنيسة فقط بل تعدى الى ارسطوطاليس نفسه . فقد كانت كلمة ارسطوطاليس هي العليا تتحطم الرءوس في تفسيرها ولا تستطيع معارضتها طول مدة القرون الوسطى وحسبك دليلاً على مكانة هذا الفيلسوف ان الرشديين والميمونيين كان لكل منهم فلسفة تعارض إحداها الاخرى . وكانت كلتاهما مع ذلك قائمة على أساس فلسفة ارسطوطاليس . كأن اقوال هذا الاغريقي العظيم اصبحت ناموساً طبيعياً يتفهمه الناس ولا يستطيعون إنكاره وان كانوا يختلفون في تفسيره . فقد كان يقول بان الارض مركز الكون . وعاشت هذه العقيدة نحو الفي سنة حتى كانت النهضة الاوربية . فاننا نجد نقولا كاسا الذي مات سنة ١٤٦٤ يعلن عن

شكه فيها في هوادة وضعف بقوله : « لقـد فكرت كثيراً وظني ان الارض غير ثابتة وانها تتحرك كما تتحرك الـكواكب ٠٠٠ واظن انها تدور حول محورها مرة كل يوم »

ولم يضطهد كاسا لهذه الظنون الخطـيرة لان رجال الدين لم يفطنوا لمرماها البعيد

المطبعة

اعتدنا رؤية الكتب والصحف نقتنيها ونقرأها بل نطرحها لكثرتها ولقلة أثمانها حتى ليكاد يتعذر علينا أن نتصور زمناً كان يعيش فيه الناس بلا كتب أو صحف مطبوعة. ومع ذلك فان هذا كان الواقع الى قبل القرن الخامس عشر. ولم يكن فن الطبع نفسه مجهولا فان الشرقيين والغربيين كانوا يعرفون الاختام منذ زمان بعيد ويطبعونها على المراسيم والمنشورات. وكانت أوراق الكوتشينة معروفة تباع للناس مطبوعة قبل أن تخترع طباعة الكتب باكثر من قرن. ومع ذلك لم يفكر أحد في طباعة الكتب الا في قرن النهضة، القرن الخامس عشر. وانما كان ذلك لان نزعة النهضة لم تكن بعد قد أشربت بها النفوس. والانسان يعمى عن أبسط الاشياء ما لم تتملك نفسه نزعة خاصة تجعله ينقب ويبحث ويتساءل ويشك ويجرب. وكان الناس في أوربا مدة القرون الوسطى لا يعرفون من العلم سوى ما قاله السلف الصالح يقضون أوقاتهم في تفسير أقوالهم على نحو ما يفعل بعض الشرقيين الذين هم نكبة الشرق الآن

وتنسب الطباعة الحديثة الى جوتمبرج الالماني الذي مات سنة ١٤٦٨. فهو الذي صنع الحروف المنفصلة وطبع بها عدة كتب لا يزال يوجد منها للآن في متحف مينز توراة مطبوعة باللاتينية ومعجم لاتيني وجزء من تقويم. وهذه أشياء ضئيلة القيمة في ذاتها

ولكن جوتمبرج أشعل شرارة لو كان علم الرجعيون بمبلغ النار التي ستؤججها فيما بعد لوأدوا المطبعة في مهدها . فانه ما جاء القرن السادس عشر حتى انتشرت المطابع وصارت الكتب تخرج منها بالآلاف واضحة الخط رخيصة الثمن فاقبل عليها الجمهور يستنير بهذه المعارف التي كانت قبلا وقفاً على الاغنياء . ورأى الكهنة أنهم أمام تيار قوي من الثقافة يكاد يطمو بهم ويغرقهم فالفوا المجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التي لا توافق الكنيسة على نشرها . وكانوا ينشرون أسماء هذه الكتب فيما يسمى « القائمة » أو «الدليل»

ولكن هذه « القائمة » بدلا من أن ترد الناس عن قراءة هذه الكتب كانت تحثهم على اقتنائها . وكان الطباعون في المانيا وهولندا يبعثون وكلاءهم لكي يبحثوا عن الكتب الواردة بقائمة الحرم فينسخونها ويحملونها الى مطابعهم في شمال أوربا ويطبعونها . وكانت « قائمة » الكنيسة أكبر اعلان للكتاب . وصار للمطابع الشهيرة في اوربا وكلاء يقيمون في رومية وينسخون الكتب الواردة بالقائمة وينفذونها الى مطابعهم مغتبطين بتحريم الكنيسة لها لان هذا التحريم كان اكبر ضمان لرواجها

ويطول بنا الكلام إذا أردنا ان نتتبع الاضطهادات التي نالت المؤلفين والطباعين من الكنيسة والحكومات . بل آلة الطباعة نفسها وهي قطع مؤلفة من جماد لا يحس نالت شيئاً من الاضطهاد لانه كان يحكم باغلاقها كأنها جسم حي ينشر الفساد بين الناس ويعاقب بتعطيله . ولكن « قائمة » الكنيسة واحراق الكتب واضطهاد المؤلفين وحبس الطباعين وتعطيل المطابع كل هذه لم تستطع ان تمنع الثقافة

من الانتشار لان فكر الانسان وشهوته للتطور يأبيان الا ان يشقا لهما طريقاً من وسط الاضطهاد نحو الحرية والسمو . وخير ما يقال عن الطباعة ما قاله ملتون الشاعر الانجليزي سنة ١٦٤٤ فاننا نحن في مصر ما زلنا في حاجة الى ان نفهم هذا الكلام . فقد تكلم ملتون عن مراقبة الطباعة وقال انها تؤدي « إلى تثبيط الثقافة ووقف المعارف وذلك ليس فقط بتعجيز كفاياتنا وثلمها في فحص ما نعرفه بل ايضاً باعاقة الاكتشافات الجديدة التي كان يمكن ان تكتشف سواء في الحكمة الدينية او الحكمة المدنية » وإذا كان تيار الحقيقة « لا يتدفق ماؤه ويسير قُدُماً فانه يأسن ويستحيل بركة كدرة قوامها التجانس والتقاليد » . ثم يضرب المثل بالاقطار التي بها رقابة على المطبوعات ويقول : « انظر إلى ايطاليا واسبانيا هل هما احسن حالاً بمثقال ذرة او هل هما اشرف او احكم او اطهر بما اكتسبته كل منهما من قسوة محكمة التفتيش في معاملتها للكتب ؟ » وأيضاً : « اعطني الحرية في ان أعرف وان اقول وان أناقش كما يملي عليّ ضميري قبل ان تعطيني أية حرية اخرى »

ونحن الآن في سنة ١٩٢٧ لم نبلغ بعد حرية الطباعة . فالى الآن تحاكم المخالفات البسيطة التي يرتكبها الصحفيون امام محاكم الجنايات ويحرمون بذلك من حق يناله اللص والسكير والبغي . ونحن للآن يحتاج الراغب في انشاء جريدة ان يجتاز بعدة عراقيل كثيراً ما تمنعه من تحقيق غرضه . في حين ان الراغب في فتح قهوة او من يتجر بالخمر لا يجد مثل هذه العراقيل . وحرية التمثيل لا تزال للآن تحت مراقبة الحكومة

البروتستانتية

نجحت البروتستانتية لانها جاءت في وقت كان قد آن فيه ان تنجح . فقد خرج قبلها كثيرون على رومية طوائف وافراداً ولكنهم لم ينجحوا لان الزمن لم يكن قد نضج بعد للنجاح

نجحت البروتستانتية لشيئين :

١ً — لان البابوية كانت قد طمت وطغت بحيث كان الكهنة يبيعون للناس غفراناتهم من خطاياهم . وايضاً كان الناس قد سئموا المظالم التي ارتكبتها محاكم التفتيش

٢ً — ظهور مبدأ القوميات سبب آخر للنهضة البروتستانتية . فان الملوك والامراء الذين كانوا يحكمون اوربا في شمال الالب كانوا يغارون من سلطة البابا ويميلون إلى الاستقلال منه ورأوا ان في الانفصال الديني من كنيسة رومية زيادة في نفوذهم وسلطانهم فروّجوا لذلك الدعاية البروتستانتية في بلادهم

وصاحب الدعاية البروتستانتية هو لوثر وُلد سنة ١٤٨٣ ومات سنة ١٥٤٦ وهو الماني الدم والمنشأ والوطن بدأ حياته راهباً ثم صار أستاذاً للفقه في جامعة وتنبرج . وفي سنة ١٥١٧ جاء المدينة راهب يبيع الغفرانات فاعلن لوثر ان هذا العمل يناقض المسيحية . وعقدت على اثر ذلك مؤتمرات من الكهنة نوقش فيها لوثر فأصرّ على تخطئة كنيسة رومية وطبع ثلاث رسائل يوضح فيها مذهبه وينتقد البابوية

وأذاع البابا منشوراً سنة ١٥٢٠ يجحد فيه آراء لوثر . فأخذ لوثر هذا المنشور وأحرقه على الملأ في وتنبرج

وصح عندئذ في أذهان الالمان ان النزاع بين لوثر وبين البابا هو نزاع بين الحرية والتقييد وبين القومية والشيوعية المسيحية فانضموا إلى لوثر . وفي سنة ١٥٢١ ترجم لوثر التوراة والانجيل إلى الالمانية . وكان لا يقرأ قبلا الا في لغة الشيوعية المسيحية ، اللغة اللاتينية . وفي سنة ١٥٢٥ قطع الطريق بينه وبين رومية بان تزوج راهبة . وعاش عيشة هنية إلى ان مات في سنة ١٥٤٦

والآن ماذا ربح العالم من خروج لوثر على كنيسة رومية ؟ كان أول الرابحين الكنيسة الكاثوليكية نفسها ، كنيسة رومية. فانها عندما رأت الصدمات تتوالى عليها واوربا ينشق نصفها منها ويعمل على إزالتها من الوجود اضطرت إلى الاعتدال والضبط والاصلاح فالغت بيع الغفرانات ونزلت محكمة التفتيش عن بعض قساوتها وضبط الباباوات انفسهم فلم يعد يرؤس الكنيسة امثال بورجيا . واصطلح حال الرهبان وظهرت شيعة اليسوعيين الذين كانوا مثالا للهمة في خدمة الدين والعلم معاً

وكان ظهور البروتستانتية ربحاً للحرية الفكرية لانها وان كانت قد ظلمت وطغت ايضاً إلا انها لم يكن بها « محكمة تفتيش » ولا قتل ولا إحراق ولا مصادرة مما كان فاشياً وقتئذ . ثم ان وجود مذهبين سهل على الناس الجراءة على دعاوى الكنيسة وحرر البحث الديني بعض التحرير من القيود الاستبدادية التي كان يضعها البابا . ثم ان ترجمة التوراة والانجيل للغات أوربا الحديثة جعل الناس يدرسونهما

وينقدونهما لانهما كانا قبلا وقفاً على من يعرف اللاتينية . اما الآن فان كل بروتستانتي صار يمكنه الدرس والنقد ما دام يقرأ لغة بلاده

وليس من شأننا أن نبين الفرق المذهبي بين البروتستانتية والكاثوليكية . وانما خلاصة ما يمكن أن يقال في ذلك ان الكاهن في الكاثوليكية وسيط بين المسيحي وربه أما في البروتستانتية فهو مرشد فقط

أرازموس

في هذا الفصل وفي بضعة فصول تالية سنترجم بحياة طائفة من زعماء التفكير كل منهم يمثل طرازاً خاصاً من هـذا التفكير من عهد النهضة الى القرن الثامن عشر. وفي خلال هذه التراجم سيرى القارىء مناظر عدة للكفاح بين الفكر الانساني الذي يبغي الانطلاق والحرية وبين القيود التي وضعها الجمود لحبسه وكبحه

ويجب أن نضع في أول قائمة هؤلاء الابطال أرازموس الذي وُلد سنة ١٤٦٦ ومات سنة ١٥٣٦. فانه كان يمثل النزعة الى الدرس والثقافة. وليس شيء يعمل للحرية الفكرية ويضمن بقاءها ويحث على الدفاع عنها مثل الثقافة الواسعة المتشعبة لان الوقوف على الاراء المختلفة والمتناقضة يشبع القلب بروح التسامح وكراهة التعصب

وُلد أرازموس في هولندا وكان يشبه دافنشي أحد رجال النهضة أيضاً في ايطاليا من حيث أن كليهما كان ثمرة السفاح. وتربى في مدارس هولندا وأديارها ثم رحل الى باريس ومنها الى انجلترا حيث أقام باكسفورد مدة عرف فيهـا توماس مور صاحب الطوبى المشهورة وهناك تعلم اليونانية. ثم ارتحل الى القارة ثانياً وعاد الى كمبردج بانجلترا فدرس اليونانيـة. وأخيراً قر قراره في بازل في سويسرا وأخرج فيها معظم مؤلفاته وكان يرتحل عنها ثم يعود اليها حيث مات سنة ١٥٣٦

ورأى أرازموس في حياته انقلابين عظيمين في الافكار أولها اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢ وثانيهما ترجمة لوثر للكتاب المقدس سنة ١٥٢٢ وكان هو نفسه جديراً بهذا العمل الاخير بل كان أجدر من لوثر به لانه كان أثقف منه وأعرف باللاتينية واليونانية . ولكن نزعته كانت أميل للثقافة والدرس منها الى الكفاح والمصادمة بل يمكن أن نقول انه كان جباناً يخشى النار التي كانت تعد للمهرطقين. فكان يصادق الكاثوليك والبروتستانت معاً ويعيش في ايطاليا حيث محكمة التفتيش كما يعيش في المانيا حيث كانت تبلغ الحماسة للمذهب الجديد درجة التعصب المؤذي . وكان تنقله هذا بين المذهبين ثم ثقافته الواسعة في أدب الاغريق والرومان القدماء وأيضاً روح الجراءة الذي ابتعثه في النفوس اكتشاف أميركا كل هذه جعلته يقول بالتسامح ويدعو اليه

واكبر مآثر أرازموس طبعه للانجيل سنة ١٥١٦ باللغة اللاتينية تقابلها الاغريقية صفحة بعد صفحة . فانه بهذا العمل افتتح عصراً جديداً لدرس الانجيل درساً تاريخياً دقيقاً . ثم أنه محص كتب القدماء وحررها من نسخ النساخ وأعاد طبعها فابتعث في النفوس ذوق الدرس لهؤلاء القدماء . أما عن التأليف فانه لم يضع سوى كتاب واحد هو « مدح الجنون » وسائر حياته قضاه في تحرير الكتب القديمة

و « مدح الجنون » هذا من الكتب الفريدة التي أثرت أثراً كبيراً في عصر النهضة . فانه وضعه على طريقة « دون كيشوت » وضمنه المجون والتهكم عن الاوضاع والانظمة السائدة في عصره تكلم فيه عن تنطع العلماء وجهل الجهلاء ولم يترك فيه أحداً ذا مكانة من

البابا الى الرهبان ومن الملوك الى الجنود حتى أذاه بغمزة وعرض به .
وعبرة الكتاب التي يستخرجها القارىء منه أن العالم حافل بالاغلاط والمساوىء وأنه يحسن بنا أن نتسامح لانه ليس لاحد منا أن يعتز بعلمه ويتيه به على الناس . وأنه خير لنا أن ننظر الى الانجيل ليس باعتبار أنه شريعة للناس تسن لهم نظام الحكم والمعيشة بل حسبنا منه أن يكون مرشداً لنا في الاخلاق

ومن الناس من ينقم على أرازموس أنه كان مع تشبعه بروح العصر ومع معرفته بفضائح زمانه لم يعمد الى الثورة كما فعل لوثر .
وقد أجاب هو على ذلك بقوله أنه « لو امتحن لفعل مثلما فعل بطرس » أي أنه ينكر سيده وينكر الحق حقناً لدمه . والحقيقة أن مهمة الرجل كانت مقصورة على نشر الثقافة والنقد فهو أديب درس والف وعمم المعارف ولم يكن خطيباً يكافح ويناضل

رابليه

وُلد رابليه في اقليم تورين في فرنسا سنة ١٤٩٠ ومات سنة ١٥٥٣ وتعلم في مدارس الرهبان في فرنسا وسلك في سلك الرهبانية الى أن بلغ الاربعين حين جحد حياة النسك وخرج الى الدنيا سنة ١٥٣٠ . ومما يؤثر عنه مدة تلمذته أنه اكب على الاغريقية فتعلمها وضبطت في صومعته عدة كتب لهيرودوتس وغيره فطرد من الدير وانتقل الى دير آخر أخف رقابة منه

وخرج من الرهبانية وهو في الاربعين فتتلمذ من جديد ودرس الطب في مونبلييه ونال لقب الدكتورية بعد سبع سنوات سنة ١٥٣٧ والتحق بمستشفى ليون وهناك اخذ يحرر الكتب القديمة ويطبعها على نحو ما كان يفعل ارازموس . وزار ايطاليا والمانيا ثم عاد الى باريس ومات سنة ١٥٥٣

ويمتاز رابليه على ارازموس بشيء آخر غير حب الثقافة والدرس ونشر الكتب القديمة وذلك انه نزع نزعة علمية فاخذ يدرس التشريح . وكانت الكنيسة تنكر هذا العلم انكارها للتوسع في درس القدماء إذ كانت تخشى من القدماء روح الحرية التي كانت تتسم بها كتب الاغريق والرومان كما كانت تخشى ايضاً نبش النسخ الاغريقية القديمة للكتاب المقدس ومعارضتها بما كان شائعاً منه . وكانت ايضاً تخشى الروح العلمية لما فيها من نزعة التجربة وإيثار

حكم الواقع على حكم التقاليد

ويعزى إلى رابليه اكبر حادث في الادب الفرنسي فانه في سنة ١٥٣٢ تجرأ ووضع اول كتاب باللغة الفرنسية العامية . وكان قد مضى على فرنسا اكثر من الف سنة لا يقرأ فيها من الكتب سوى ما كانت لغته باللاتينية . فكان الفرنسي إذا اراد ان يخرج من الأمية وجب عليه ان يتعلم هذه « الهيروغليفية » . يتعلمها متعسراً ويقرأها متعسراً ويرطنها مع الرهبان رطانة قلما يستطيع ان يؤدي بها ابسط افكاره . فاذا خرج من الدير او من المدرسة تكلم مع بني وطنه بالفرنسية . فكان يفكر برأسين : رأس يشافه به الناس في الاسواق والمنزل والحقول ولغة هذا الرأس هي الفرنسية . ورأس يحتفظ به للكتب والدرس والثقافة ولغة هذا الرأس هي اللاتينية .

ووضع رابليه كتاباً بلغة العامة هو كتاب « حياة جرجنتوا وابنه بنطجرويل واقوالها واعمالها » وهو اسطورة عن عملاقين تخيلهما رابليه من عالم الوهم لكي يحمل بهما على عالم الحقيقة وغايته أن يثبت ان الاصل في طبيعة الانسان طيبة العنصر وصدق النظر وصحة الحكم وأنه لا يفسده سوى التقاليد والقيود التي يضعها الدين. ومع ان الكتاب خيالي اللهجة والاشخاص فان جامعة السوربون جحدته وحكم برلمان باريس باحراقه . ولم يضطهد رابليه با كثر من ذلك فان اللهجة التي اتخذها في رواية أسطورته كانت حائلا دون محاكمته

وتنحصر خدمة رابليه للحرية الفكرية في انه :

١ — أطلق الذهن الفرنسي من قيود الاداء اللاتينية وجعل الفرنسية لغة الثقافة والدرس

٢ — نزع نزعة علمية بدرس التشريح

٣ — سار في النهج الذي اختطه قبله أرازموس بدرس القدماء وتوسيع الذهن بالوقوف على فلاسفة الاغريق والرومان وتحرير كتبهم

٤ — وضع الطبيعة البشرية أمام التقاليد الدينية وآثر الاولى على الثانية

سوزيني

سبقت ايطاليا سائر الامم الاوربية في ترويج النهضة . وكانت ايطاليا خاصة تمتاز في طبع الكتب او نسخها من سائر الاقطار . ففي القرن السادس عشر بينما كان لا يوجد في انجلترا سوى ست عشرة بلدة بها مطابع وبالمانيا عشرين كان بايطاليا مائة بلدة تحتوي كل منها على مطبعة تعمل ليل نهار جادّة في طبع الكتب ونشرها على الناس . وكان الامراء الذين يروّجون الدعاية للنهضة في ايطاليا عديدين منهم البابا نقولا الخامس ومنهم الفونس أمير نابولي ومنهم أسرة مديتشي ومنهم البابا ليون العاشر . فان كل هؤلاء وغيرهم كانوا يكترون الكتبة لنسخ الكتب القديمة من الاديار لمكاتبهم أو كانوا يأمرون بطبعها ونشرها على الناس . وانت أيها القارىء العربي يجب أن تذكر ان أول ما طبع من الكتب العربية في العالم انما كان في ايطاليا بامر باباوات رومية

ولكن مع ان ايطاليا تولت زعامة النهضة مدة طويلة واخرجت من مطابعها مئات الكتب التي كانت محبوسة في أديارها ونشرتها على الناس فانها لم تتأثر قط بالنهضة الدينية بل بقيت كما كانت كاثوليكية وعاشت فيها محكمة التفتيش إلى سنة ١٨٧٠ . ويرجع ذلك إلى اقامة البابوية في رومية وتسلطها على البلاد بجيش جرار من الكهنة والرهبان . فقد كانت رومية منذ القرن الرابع المسيحي

إلى الآن معسكر النصرانية الاكبر ينضوي إلى لوائها جميع الاولياء لهذا الدين

ولكن مع خدوبة التربة الايطالية لبذور الاصلاحات الدينية نجد ان شهوة التطور الديني قد تملكت بعض الافراد والاسر في ايطاليا . واسرة سوزيني تعد في طليعة هؤلاء نشأ منها اثنان عمل كلاهما للتحرير الديني في ايطاليا . وسنقنع بترجمة واحد من هذه الاسرة هو فوستوس سوزيني

ورث فوستوس عن جده ضيعة صغيرة ولم يتزوج إلا بعد ان بلغ الخمسين فاستطاع بذلك ان يعيش مستقلا يرصد وقته للدرس خالياً من هموم العائلة والمعاش . وزار فرنسا واقام في ليون مدة ثم عاد إلى ايطاليا سنة ١٥٦٣ . واجتاز في عودته بمدينة جنيف فرأى حكومة كالفن وكيف تكون المسيحية عند ما تستحيل شريعة يتعامل بها الناس مما سنشرحه بعد . وامضى بعد ذلك ١٢ سنة في خدمة إحدى اميرات أسرة مديتشي المدعوة إيزابلا . ثم غادر ايطاليا إلى بازل في سويسرا حيث اكب على ترجمة المزامير الى اللغة العامية الايطالية واخذ في تأليف كتاب عن حياة المسيح . وقد اطلق على كتابه إسم « المسيح الخادم » وهو اسم ذو مغزى يدل على الروح الجديدة التي صار ينظر بها الناس إلى المسيح والى الكنيسة . فان المسيحية كانت الى هذا الوقت ديانة تمثلها كنيسة قوية تسيطر على عقول الناس واجسامهم وتتخذ هيئة السيد امام العبيد . ولكن فوستوس اراد ان يضع المسيح موضع الخادم للناس وان يعود بالناس الى ديانة المسيح التي نجدها في الانجيل ديانة التواضع والتسامح

والخدمة العامة لا ديانة بولس الشائعة في زمنه ديانة الكنائس والكهنة ومحاكم التفتيش

ولم يقع فوستوس بكلمة في كل ما كتبه يمكن محكمة التفتيش ان تؤاخذه عليها وكذلك لم يُذكر كتابه او مزاميره المترجمة في « الدليل » . فقد كان فوستوس يعيش كما قلنا بما يحمل اليه من ريع ضيعة صغيرة في ايطاليا . فكان لذلك يحرص على ألا يغضب محكمة التفتيش التي كان اهون ما عندها من عقاب مصادرة المالك في ملكه. ومما ساعده على الحذر والحيطة في كتابته انه كان اصم والصمم على الدوام من دواعي الحذر . وكان من حذره أن يصطنع اسماء مختلفة وان يداور في العبارة ويقنع بالتلميح دون التصريح

وكانت اوربا في ذلك الوقت ميداناً للحماسة الدينية يقتتل فيه المذهبان القديم والجديد او الكاثوليكية والبروتستانتية . وكانت الحماسة تغلي احياناً إلى درجة التعصب والاضطهاد . وكانت بولندا في ذلك الوقت ملجأ للاحرار . فقد كان لها برلمان غريب لا يمكن ان يصدر عنه قانون ما دام عضو واحد يعارض في إصداره . فكان هذا النظام مانعاً من اشتراع اية شرعة يراد بها اضطهاد احد

وكان في بولندا طبيب ايطالي قرأ تاريخ المسيح الذي ألفه سوزيني فاعجب به واستدعاه من بازل إلى بولندا . فرحل من بازل الى بولندا وقضى فيها سائر عمره الى ان مات سنة ١٦٠٤ وهناك وضع كتابه « تعليم راكوف » في ضرورة التسامح ننقل منه هذه القطعة الآتية :

« فلندع كل انسان حراً للحكم على دينه لان هذه هي القاعدة

التي يبسطها لنا « العهد الجديد » ولا تنا نجد تعاليم الكنيسة الاولى تقول بها . ومن نحن - نحن الاشقياء - حتى نخنق ونطفىء في الآخرين نار الروح المقدسة التي اشعلها الله فيهم ؟ هل احتكر احد منا معرفة الكتب المقدسة ؟ ولمَ لا تتذكر ان سيدنا الوحيد هو يسوع المسيح واننا جميعاً اخوة ليس لاحد منا ان يسيطر على نفوس الآخرين ؟ وليس من ينكر ان يكون احد منا اعلم من الآخرين ولكننا نستوي جميعاً في الحرية وفي علاقاتنا بالمسيح »

وهذا كلام بديع ولكنه جاء في غير اوانه فانه عند ما نشر كتاب سوزيني عن المسيح في كراكوف حدث هرج واضطراب في المدينة من العامة كاد يودي بالمؤلف . وكان اكبر ما دعا العامة إلى الاضطراب انكار سوزيني لعقيدة التثليث

موتين

للوسط تأثير في مزاج الشخص من حيث التسامح او التشدد كما ان له تأثيراً في اعتباره للفضائل وقيمة ممارستها . فالتجار مثلا احرص على انجاز وعودهم من الزراع والصناع والموظفين . وليس ذلك لانهم اشرف نفساً او ادق ذمة وانما هم يحافظون على وعودهم لان التجارة تتطلب ذلك . ولا نجاح لها الا اذا كانت كلمة التاجر التي يشافه بها تاجراً او معاملا تقوم مقـام الوعد المكتوب . ومن رأى أعمال البورصة وكيف تُسقطع الوعود فتأتي بالربح او الخسارة فلا يمكن احد الطرفين التخلص منها مع أنها لم تقطع إلا مشافهة ، او من رأى الصاغة وهم ينقلون المصوغات الثمينة من حانوت الى آخر بلا وزن يعجب من مبلغ امانة هؤلاء التجار وخاصة إذا قابلها بما يعرفه عن سائر الافراد من الصناع او الزراع او غيرهم . وليس مرجع هذه الامانة الى فضل خاص يختص به التاجر دون غيره وإنما التجارة في ذاتهـا تحتاج إلى الامانة الشديدة في المعاملة وإنجاز الوعود الشفاهية . ومن هنا امتياز امة تجارية مثل الانجليز بالامانة في المعاملة

ولكن التاجر يمتاز بشيء آخر . وهذا لانه لاحتياجه إلى معاملة جميع الطوائف من جميع الملل يضطر إلى التسامح . فصاحب الحانوت الذي ينتظر رزقه من كل غاد ورائح لا يستطيع ان يسب اليهود او

يرفض بيع ما عنده من السلع للملحد او يأبى ان يربح في صفقة على يد كافر بدينه لانه يعرف أن التشدد ـ ناهيك بالتعصب ـ يحصر عدد معامليه في حين هو يرغب في زيادتهم . ولهذا السبب نجد المدن أكثر تسامحا من الارياف

وقد نشأ مونتين في وسط تجاري . كان أبوه يتجر بالسمك وكانت امه ترجع في نسبها الى دم اسباني يهودي فكانت هذه الظروف الخاصة تعمل لكي ينشأ كارها للتعصب . ثم رأى أيضاً في حياته مقتلة سان بارتولوميه سنة ١٥٧٢ حين فتكت الكنيسة الكاثوليكية والحكومة الفرنسية بنحو ٢٥٠٠٠ فرنسي بروتستانتي ورأى أن الكنيسة لم يثب اليها رشدها بعد هذه المقتلة الفظيعة بل تغلغلت في الضلال والفساد وانشأ البابا غريغوري الثالث عشر نوطاً في ذكر هذه المقتلة

وُلد مونتين سنة ١٥٣٣ ومات سنة ١٥٩٢ وتعلم اللاتينية ودرس القانون وتعين قاضياً في المحاكم الفرنسية ثم ساح في سويسرا وايطاليا والمانيا ثم عاد الى فرنسا حيث صار محافظاً لمدينة بوردو . وبعد ذلك عاش في باريس

ويذكر مونتين الآن بمقالاته التي عالج فيها جملة مواضيع . ومن هذه المقالات واحدة عنوانها « عن حرية الضمير » تكلم فيها عن يوليان الامبراطور الكافر وجعله مثالا صالحاً للتسامح الذي يجب أن يتصف به الملك أو الامير حتى يعيش في كنفه جميع الناس مهما اختلفت عقائدهم الدينية

وقد احتاج مونتين الى مداراة الكنيسة فكان يذهب للصلاة

كل أحد يتقي بذلك غضب الكهنة . وكان لا يقول برأي الا بلهجة الاعتدال في صورة التساؤل : « ماذا نعرف ؟ »

وكان من أثره انه خفف ضغط الكنيسة للناس وطبعت مقالاته الاذهان بطابع التسامح الذي تتسم به الثقافة الاوروبية الآن

برونو

في سنة ١٦٠٠ في رومية المدينة الخالدة في اليوم السابع عشر من فبراير جُمع كدس كبير من الحطب . واخرج من السجن رجل كان قد قضى فيه ست سنوات . وكان الرجل شاحب الوجه نحيل الجسم مضت عليه أيام وهو يُؤخذ من سجنه الى محكمة التفتيش فيطلب منه كهنة المحكمة أن يجحد مقالته في المسيح والله والقيامة . فيرفض الرجل . فيعاد الى السجن ثم يعاد استجوابه فيصر الرجل على الرفض . وأخيراً تحكم عليه محكمة التفتيش بالاحراق . فيسمع الحكم وهو هادىء مطمئن ويخرج من المحكمة الى النار التي أعدها شياطين الانس وهو يقول لكهنة المحكمة : « لعلكم أيها القضاة وأنتم تنطقون بهذا الحكم تحسون من الفزع والرعب اكثر مما أحس أنا عند سماعي له »

ويساق عندئذ الى النار فلا تمضي دقائق حتى يصير رماداً

هذا الرجل هو برونو الايطالي وُلد سنة ١٥٤٨ واستشهد سنة ١٦٠٠ . نشأ في نابولي وترشح للرهبانية ورسم راهباً دومينيكياً . ثم وقع له أنه لا يؤمن بالانجيل فهجر ايطاليا وجاب أقطار اوربا يطرأ على البلدة فيقيم بها أياما أو أشهراً حتى اذا علمت الشرطة بخبره أعلنوه بتركها فيرحل عنها الى غيرها وهو على وجل متصل من الكبس والمصادرة . وذلك لأن برونو كان يختلف عمن سبقوه من

رجال الحرية الفكرية من حيث الجراءة والغلو . فبينما كان اولئك ينكرون بعض العقائد في الانجيل كان هو ينكر الانجيل كله ويجاهر بعدم ربوبية المسيح ، فلم يكن يلقى غير النظر الشزر من جميع المسيحيين المتعصبين والمتسامحين الكاثوليك والبروتستانت . وبينما كان رجال النهضة يقولون بالرجوع إلى الاغريق كان هو ينكر على جميع القدماء اي سلطان الفكر ويقول مع دلاراميه الفرنسي : « دعوا الموتى يدفنون موتاهم »

ومضى برونو في رحلاته فاقام اشهراً في تولوز ثم انتقل الى باريس وهناك تعين موظفاً في سفارة فرنسا بلندن فرحل إلى لندن ثم عاد الى المانيا ومنها قصد إلى براغ . وفي كل هذه البلدان لم يجد احداً يحميه من الكبس والطرد . وكانت شهرته تسبقه فلا تكاد قدماه تطاَن احدى البلاد حتى يرى مندوب الحكومة يستعجله في الرحيل . ولكنه طول هذا الوقت كان لا يهدأ عن الكتابة يتهكم بالدين ويحمل على المضطهدين وتجري على قلمه مثل هذه العبارات الخطرة : « ليس للحكومة حق في أن تعين للناس تفكيرهم » او : « ليس للهيئة الاجتماعية ان تعاقب بالسيف اولئك الذين ينشقون عن عقائدها الشائعة »

وكان لارسطوطاليس في عهده سلطان يشبه سلطان الدين حتى كان الطالب في جامعة اكسفورد يغرم بغرامة قدرها عشرة شلنات اذا هفا هفوة تخالف تعاليم هذا الفيلسوف . وكان برونو قد اخذ يدرس الفلك فكان يكفر بتعاليم ارسطوطاليس في الفلك ويجاهر بتأييده لنظريات كوبرنيكوس . وكوبرنيكوس هذا من رجال

النهضة الذين جحدوا فلك القدماء وقال بان الارض تدور هي وسائر الكواكب حول الشمس

وعلى ذلك كان كفر برونو مزدوجاً بالانجيل وبالقدماء. فما هو ان عم شطر البندقية وهدأ بها اياماً حتى كبسه رجال محكمة التفتيش وحملوه الى رومية حيث بقي اكثر من ست سنوات يعاني مرارة السجن وآلامه. وفي ختام هذه الآلام اشعلت النار امام جمهور من اهل رومية يطيف به وهو يمشي اليها بقدم ثابتة

ولكن الدرامة لم تتم فصولاً. فان برونو تقدم الى النار سنة ١٦٠٠ وقلبه معمور بايمانه بنفسه وبالحقيقة لا تدمع له عين ولا ترتجف له يد. وبعد ٣٠٠ سنة من احراقه كان البابا يبكي لان اهل رومية قد اقاموا تمثالاً لبرونو في المكان الذي احرق فيه...

وهكذا يُكتب الانتصار للحرية على الاستعباد

وليس يجدي القارىء ان نسرد له عقائد برونو في العلم والدين لانه هو نفسه لم يستشهد من اجل هذه العقائد بالذات بل من اجل حقه في الحرية الفكرية في ان يعتقد ما يشاء. وانما نقول انه كان يمتاز بمسحة «حديثة» على عقائده فكان يقول بأن النجوم شموس حولها كواكبها تدور مثلما تدور ارضنا وسائر الكواكب حول الشمس. وكان يقول ان الله هو روح المادة وان الكون غير متناه. وكان يقول كما قال ابن رشد من قبل ان الدين انما تقصد به منفعة العامة فقط. اما العلماء ففي غنى عنه بعلمهم

الدين شريعة

ليس هذا الكتاب دعوة الى كراهية الدين وانما هو دفاع عن حرية الشخص في اختيار دينه كما يراه في مرآة ذهنه وضميره . وبعبارة أخرى نقول ان الدين يؤذي الناس اذا كانت الحكومة تسومهم اياه لانه يقف حاجزاً دون حرية التفكير وحرية الاعتقاد

وليس انسان يستطيع أن يعيش بلا دين ما لم يكن ابله أو مغفلا لان الدين ليس في الحقيقة سوى استقرار الفرد على علاقة ما بينه وبين الكون أصله وغايته وما فيه من ناس وحيوان . فدعامة الدين يجب أن تكون قوة داخلية نابعة من الذهن نؤمن بها ايماننا بالحقائق العلمية المجربة وليس يجوز أن تكون سلطة خارجية تأمرنا بالايمان فنؤمن فاذا لم نؤمن عوقبنا بالجلد أو الحبس أو القتل

ثم يجب أن نذكر ان العقائد التي تأمر بها سلطة خارجية وتطالبنا بممارستها لا يمكن أن تكون سوى قواعد . والقاعدة جامدة جمود الحروف المؤلفة منها كلماتها . ولكن حياة الانسان دائمة التطور . والتطور هو التحول بالانتقال من حال الى حال . فمثل هذه العقائد اذن يجب أن تتناقض مع الحياة وتتعارض مع رقي الانسان . الا اذا اتيح لها علماء يقومون بتفسيرها بحيث لا تناقض روح الزمن . اما اذا لم يتح ذلك فأنه يجب عندئذ اما أن تجمد الامة وتموت واما أن تخلع هذه العقائد عنها . ونحن في هذا الفصل سنعرض لاثنين

حاول كل منهما ان يجعل الدين شريعة جامدة

وأول هذين الاثنين هو كالفن الذي وُلد سنة ١٥٠٩ ومات سنة ١٥٦٤

وهو رجل فرنسي اعتنق البروتستانتية وهو في سن الشباب وتحمس لها ودرس القانون وعاش في باريس ثم رحل الى بازل حيث وضع كتابا عن المسيحية . ثم انتقل الى جنيف ولكن أهالي هذه البلدة لم يطيقوا حماسته وطردوه فذهب الى ستراسبورج ولكنه لم يبق طويلا بعيداً عن جنيف فان حزبه قوي وتكاثر واستدعاه الى المدينة . وكانت الدعوة من البلدية ومن الكهنة ومن الاهالي فلم ير كالفن بداً من الاستجابة لدعوتهم . فعاد الى جنيف وشرع في برنامج عجيب

انما يجب أن نعرف أنه في جميع أحكامه المخطئة كان مجتهداً اجتهاد الغزالي كلاهما ينوي في قلبه الاخلاص . وانما الخطأ جاء لكليهما من النظر الديني لاحوال هذا العالم . فقد عرفنا من نزاهة الغزالي أنه ترك منصبه في المدرسة النظامية وترك عائلته ونسك نحو عشر سنوات والآن يجب أن نعرف من نزاهة كالفن أنه عندما مرض بالمرض الاخير الذي مات فيه رفض أن يقبل مرتبه لأن المرض منعه من أن يخدم به حتى يستحقه . وعند ما مات سنة ١٥٦٤ قال فيه البابا بيوس الرابع : « ان قوة هذا الهرطيق ترجع الى أنه لم يكن يبالي بالمال »

ويجب أن نذكر ان عصر كالفن كان عصر الحدة الدينية . ففي

السنة التي خرج فيها كالفن من احضان الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٣٤ اسس اغناطيوس لويولا فرقة اليسوعيين للدفاع عن المذهب القديم . ورأى العالم الاوربي أن عصر المجانة قد مضى وان الظفر سيكتب للجاد في دعوته . فما هو ان هدأ كالفن في جنيف حتى شرع يكتب للناس شريعتهم الجديدة ويفحصهم ويسائلهم عن المذهب الجديد يجمعهم كل عشرة معاً ويأخذ في تعيين ما يجب وما لا يجوز ان يؤمنوا به . وبعد ذلك اقنع مجلس المدينة بطرد جميع من يؤمن بالكاثوليكية ثم الف مجلساً يشبه محكمة التفتيش يفتش ضمائر الناس فمن رؤي أنه يعتقد من العقائد ما يغاير مذهب اهل جنيف طلب منه ان يجحد عقائده فاذا رفض اخرج من المدينة ومنع من الاقامة فيها . ولكن الهرطقة لم تكن العلة الوحيدة للعقاب . فان كلمة واحدة ينطق بها على سبيل الفكاهة رجل يحضر عرساً وقت كتابة العقد أمام الكاهن كانت تكفي لعقابه بالحبس . واليك شيئا من المحرمات التي حرمها كالفن على اهل جنيف : الرقص والغناء واللعب بالكوتشينه والمقامرة ولبس الحرير

وهذا كله لأن كالفن أراد ان يجعل المسيحية شريعة مدنية جامدة . ولكن جنايته التي تضعه في صف السفاحين هي قتله لسرفيتوس . فقد كان هذا الرجل اسبانياً تربى في فرنسا ودرس الطب والفلك والاغريقية والعبرية وقاده سوء بخته ان يدرس اللاهوت . واهتدى في ابحاثه الطبية الى معرفة الدورة الدموية . ثم ذهب في ابحاثه الدينية الى أن عقيدة التثليث عند المسيحيين وهي

ان الآب والابن والروح القدس اله واحد خطأ لا أصل لها وبلغ من سذاجته وسلامة نيته ان كتب الى كالفن خطابا يرجوه ان يأذن له بدخوله الى جنيف لكي يلتقي به ويتناقش معه في موضوع التثليث

ولكن كالفن لم يبعث اليه برد ولا بدعوة . وكان سرفيتوس في ذلك الوقت في ليون بفرنسا وعرف عنه انكاره للتثليث فقبضت عليه محكمة التفتيش وأودعته السجن ولكنه لعلة لا تعرف استطاع أن يهرب . وذهب سرفيتوس الى جنيف ولكن لم يمض عليه يوم حتى قبض عليه وشرع في محاكمته للهرطقة . ومضت على المحاكمة ٧٢ يوما قضى عليه في نهايتها بالاحراق . وفي هـذا الوقت عينه أرسلت محكمة التفتيش في ليون الى جنيف تطلب سرفيتوس الهرطيق لـكي يحرق في ليون . ولكن كالفن رفض تسليمه وأراد أن يرى بعينه هذا الخصم العنيد يتقلى على الجمر

وأحرق سرفيتوس وهو لا ينزل عن كلمة واحدة مما فاه به

ودوى في العالم عنـدئذ أن البروتستانتية لا تختلف عن الكاثوليكية بشيء وأنها تفتش ضمائر الناس وتضطهد وتقتل وان محاكمها الدينية لا تمتاز من محاكم التفتيش

ولنودع الآن سرفيتوس وقاتله السافل المخلص كالفن ولننظر بمثال آخر كيف يكون الدين اذا صار شريعة جامدة

* * *

لما انكسرت شوكة الكاثوليكية بظهور لوثر وخروجه على البابا صار الناس يتجرأون على مساءلة انفسهم وتفتيش ضمائرهم عن العقائد القديمة وصاروا يجتهدون ويعلنون آراءهم . وحوالي سنة ١٥٢٠

ظهر احد الالمان واخذ يدعو الناس إلى وجوب تعميدهم مرة أخرى عند ما يبلغون سن الشباب . لان التعميد في سن الطفولة كما هو المتبع بين النصارى لا يفيد الدخول في النصرانية إذ ان الطفل لا يعقل العقائد . فاذا اردنا ان نؤمن حق الايمان بالمسيحية ينبغي ان نعيد تعميدنا في الشباب . وكانت فرقته تسمى لذلك « المعيدين للتعميد »

وكان هؤلاء « المعيدون » يمتازون من سائر المسيحيين بالسير على حرف الانجيل يقولون بشيوعية المال وبالامتناع عن الحرب ونحو ذلك من الآراء المزعجة للدول والكنائس معاً . وفي سنة ١٥٣٤ كثر هؤلاء « المعيدون » في مدينة مونستر الالمانية فطردوا اسقف المدينة واستولوا على الحكومة وشرعوا ينفذون الانجيل والتوراة ويعضون احكامهما في الناس فجعلوا الدين بذلك شريعة مدنية جامدة وافتتحوا للسكان المساكين عهد خراب لم يره العالم من قبل او من بعد .

وكان احمسهم في مذهب « الاعادة » رجل خياط يدعى يوحنا كان يعمل للخياطة في النهار فاذا كان المساء انتفض نبياً ينطق بكلمات الانجيل والتوراة كأنهما لم ينزلا إلا لاجله وحده ولا يفهمهما احد غيره . فلما شرع المعيدون في تقلد الاحكام تناولوا كنائس الكاثوليك فهدموها وجعلوا اديار الرهبان مساكن للفقراء ثم جمعوا جميع ما في البلدة من الكتب عدا الانجيل والتوراة فاحرقوها كلها ثم نظروا حولهم فاذا بالمدينة بعض جماعات لا تزال تصر على الايمان

بغير ما يؤمن به هؤلاء المعيدون . فلم يكن باسرع من أن قبضوا عليهم وأغرقوهم أو قطعوا رؤوسهم

فلما زال من المدينة رجس الهراطقة ونجاسة الكتب ولم يبق بها سوى المعيدين الاطهار والانجيل والتوراة تفكر يوحنا الخياط فالتمع في ذهنه خاطر جليل وهو أن يحكم مونستر كما كان سليمان الحكيم يحكم مدينة اورشليم . فذهب الى سوق المدينة وأقام عرشاً ثم تبوأه . ثم قسم سكان المدينة اثنى عشر سبطاً كما كانت أسباط اسرائيل . ثم تذكر أن سليمان الحكيم لم يقتصر على امرأة واحدة فاضاف زوجات اخرى على زوجته . وكان لسوء حظه حسن الذاكرة جيد الفهم للتوراة فقادته ذاكرته الحسنة وفهمه الجيد الى انه كان لسليمان الحكيم سراري اخرى غير زوجاته . فاتخذ الملك الخياط سراري اخرى غير زوجاته

وكانت الحكومة السابقة المطرودة قد جمعت جيشاً وحاصرت المدينة ومنعت عن مونستر التموين مما حولها فعم القحط . ولكن الملك لم يكن يبالي بذلك فكان يقعد كل يوم على عرشه في السوق ويأخذ من الغني ويعطي المحتاج ويمتشق الحسام لقتل المخالفين . ولما رأى القحط يزداد أمر الاهالي بزراعة الشوارع . ولكن المحاصرين لم يمهلوا السكان الى وقت الحصاد فانهم فتحوا المدينة بعد حصارها بخمسة أشهر وقبضوا على الخياط ووضعوه في قفص وطافوا به ثم قتلوه أشنع قتلة

كل هذا حدث سنة ١٥٣٤

والآن يجب ألا تضحك أيها القارىء فان هذه الدرامة نفسها

مثلت في أم درمان منذ أربعين سنة فقط وكان بطلها المهدي . فانه أحرق جميع الكتب ما عدا القرآن وامتاز من يوحنا الخياط بان عدد قتلاه وقتلى المهديين بهديه قد اربى على مائة الف مصري وسوداني أما الذين هلكوا بغير سلاحه فقد أربى على الملايين

قتال الكاثوليك والبروتستانت

عند ما نقرأ الآن الصحف نجد معظم الاخبار خاصة باضرابات العمال والتعاون والنقابات والبولشفية والاشتراكية ونحو ذلك وكلها تدل على أن المسائل الاقتصادية هي الشغل الشاغل لاذهان السياسة الآن. ولكن الحال كانت تختلف عن ذلك في القرنين السادس والسابع عشر فان الذي كان يشغل الاذهان في ذلك الوقت هو المسائل الدينية وكانت مع ذلك تشغلها بحدة وشدة. فاننا نسمع الآن عن دسائس صحيحة أو مزعومة يدسها البولشفيون للانجليز وعن هياج للعمال يقتل فيه واحد أو اثنان. ولكن في ذلك الوقت كانت تنشب الحروب فيقتل فيها الآلاف وتخرب البلاد فيهلك سكانها بالملايين وكل ذلك من أجل الدين ومن الكراهية المتبادلة بين الكاثوليك والبروتستانت

ولكن قبل أن نذكر الحروب المذهبية والتنافس الحزبي بين الكاثوليك والبروتستانت يجب ان نشير الى ما كان من نتائج التنافس السلمي بينهما. فان كل طائفة صارت تغار على أبنائها وتخشى من تسرب العقائد الفاسدة الى نفوسهم فكانت لذلك تؤسس المدارس لتلقين الصغار بالعقيدة الصحيحة. وظهرت فرقة اليسوعيين سنة ١٥٣٤ لهذا الغرض فانها عند ما رأت نشاط البروتستانت خشيت أن تتضعضع الكنيسة القديمة أمامهم. فتأسست لهذا السبب المدارس اليسوعية وكانت سنداً عظيما استندت اليه الكاثوليكية. وحسب القارىء

ان يرى الآن نشاط اليسوعيين في مصر وسوريا ليقيس عليه نشاطهم في القرن السادس عشر في أوربا . وحركة انشاء المدارس الحديثة ترجع الى ذلك العهد

ثم يجب ألا ننسى أيضاً ان انشاء المدارس قد روّج الطباعة لان المطابع أصبحت تجد في الكتب المدرسية مادة تعيش منها . وأيضاً هنا يجب ان نضرب المثل بنشاط المدارس اليسوعية عندنا في طبع الكتب

هذه هي بركات المنافسة الدينية السلمية. أما نكباتها وكوارثها ففي الاضطهادات والمجازر والحروب . ولكن يجب ان ننبه القارىء الى انه كانت هناك اعتبارات أخرى في الحروب الدينية غير الدين

وأول هذه الكوارث ارسال فيليب ملك أسبانيا جيشاً على هولندا لاخماد الحركة البروتستانتية . فقد قام في رأس فيليب انه حامي ذمار الكاثوليكية فبينما كانت محكمة التفتيش في أسبانيا تطارد المغاربة كانت جيوشه تحرق المدن وتقتل الناس في هولندا . وكان ذلك سنة ١٥٧٢ وهي السنة التي ذبح فيها نحو ٢٥٠٠٠ بروتستانتي في فرنسا في عيد سان بارتلوميه

وانهزم فيليب في هولندا . فجهز أسطولا لمقاتلة الانجليز والهولنديين معاً سنة ١٥٨٨ . وهنا يتضح للقارىء ان الدين كان تعلة وتكأة يتكىء عليها فقط ولكن القصد هو الفتح . وقد انهزم الاسطول الاسباني وأخذت هولندا وانجلترا تستوليان على ممتلكات أسبانيا في آسيا

ولكن أعظم الحروب الدينية بعد الحروب الصليبية هي حرب

السنين الثلاثين التي بدأت سنة ١٦١٨ وانتهت بخراب ألمانيا تقريباً سنة ١٦٤٨ . ففي هذه الحرب حاول الامبراطور فرديناند الثاني وهو من أسرة هابسبرج ان يمحو البروتستانتية من المانيا فأرسل عليها جيوشه تخرب وتدمر حتى يقال ان خمسة أسداس القرى والمدن الالمانية خربت وان الاهالي الذين كانوا ١٨ مليون نفس نزلوا الى أربعة ملايين

ودخل جوستافوس أدولفس الاسوجي فدحر جيوش الامبراطور ثم استحالت هذه الحرب الدينية الى حرب سياسية صريحة . فانضمت فرنسا الكاثوليكية الى الاسوجيين البروتستانت لقتال الامبراطور . ودخلت دنماركا البروتستانتية الحرب ولكن لا لقتال الكاثوليك وانما لقتال الاسوجيين البروتستانت . وكانت نتيجة هذا الخراب العظيم الذي نال أوربا ان الناس عرفوا قيمة التسامح لا حباً فيه بل خوفاً من عواقب التعصب

جاليل

وُلد جاليل سنة١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢ . وحياته كفاح متصل مع القدماء الذين أخذ على عاتقه هدمهم ومع الكهنة الذين أوشكوا أن يجعلوا خاتمة حياته مثل خاتمة حياة برونو . ولكنه توقى هذه الخاتمة بان رضي بان ينكر ما قاله

كان جاليل ايطالياً نشأ في أسرة شريفة وتربى التربية العالية التي كان يحصل عليها أبناء الاشراف في ايطاليا . وقد أبدى من الذكاء والميل الى الدرس ما جعله أستاذاً في جامعات ايطاليا في الرياضة والميكانيكيات . وحدث في سنة ١٦٠٩ أنه سمع بان أحد البلجيكيين قد اخترع زجاجة اذا نظر من خلالها جعلت الشيء البعيد قريباً فاكب على درس هذا الاختراع واخترع التلسكوب وأخذ في درس الفلك. واخترع جاليل شيئين آخرين أيضاً كان لهما اكبر الاثر في النهضة العلمية وهما الميكرسكوب والترمومتر . وربما لم يكن لهذه المخترعات في نظر الكهنة من القيمة في زمنه مقدار ما كان لتخطئته لارسطوطاليس في زعمه بان الاجسام الثقيلة أسرع في السقوط من الاجسام الخفيفة. فقد كذب جاليل هذا الزعم واثبته بالتجربة بان القى جسمين أحدهما خفيف والآخر ثقيل من قمة برج بيزا فوقع الاثنان في وقت واحد على الارض . واستنتج جاليل أن سرعة السقوط انما تتوقف على بعد المسافة لا على ثقل الجسم . وكذب ارسطوطاليس أيضاً في زعمه بان

الارض مركز الكون . وقد كان لارسطوطاليس من الحرمة في الكنيسة ما يكاد يشبه حرمة الانجيل

ونزع جاليل نزعة علمية قائمة على التجربة فاستعمل تلسكوبه الجديد في كشف السماء فعرف بذلك من النجوم نحو عشرة أضعاف ما كان معروفاً منها بالعين المجردة . وأظهره تلسكوبه أيضاً على القمر فاخذ برصده ووجد أن وجهه « يشبه جداً سطح الارض » فيه السهل والجبل . واكتشف أقماراً لجوبتر ثم استنتج أن هذا الكوكب يشبه الارض . ووقفه تلسكوبه أيضاً على بقع الشمس التي لا نزال نحن حائرين في ماهيتها . وكانت كل هذه الابحاث تقوده الى ما يقوله الآن علماء الفلك وهو أن الكواكب والقمر قد تكون مأهولة بالناس مثل الارض . وهنا بدأ الكفاح بينه وبين الكهنة

وذلك أن الكتب المقدسة قد جعلت الارض مركزاً للخليقة ووجدت من أرسطوطاليس تأييداً لهذا القول فاكبرت تعاليمه في هذه الناحية وعولت عليها . ولكن جاليل وجد أن هناك من الكواكب ما هو اكبر من الارض فاستنتج أن الحياة لا يمكن ان تكون امتيازاً خاصاً بالارض وانها كما نشأت هنا يجوز أن تكون قد نشأت هناك

وبلغ محكمة التفتيش في ايطاليا هذه الهرطقة الجديدة سنة ١٦١٦ فكتبت الى الكردينال بلارمين تأمره « ان ينهي جاليل عن هذه الآراء وفي حالة رفضه يؤمر بالكف عن تعليم هذه الآراء او الدفاع عنها اوحتى البحث فيها . وفي حالة مخالفته يسجن »

وسكت جاليل . فان شبح النار التي اوقدت لبرونوسنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريباً ولم يكن جاليل يستمرىء نار الاستشهاد . فلما كانت

سنة ١٦٣٠ الف كتاباً عن الفلك وذهب الى البابا يستأذنه في نشره وكان موضوع الكتاب المهم هو تعليل حركة المد والجزر بازدواج حركة الارض اي بدورتها حول نفسها وايضاً بدورتها حول الشمس. فاذن له البابا بنشر الكتاب بعد أن اشترط عليه جملة شروط كان اهمها ان يكتب في ختام الكتاب هذه العبارة : « الله قادر على كل شيء . وكل شيء ممكن لديه . وعلى ذلك فليس يمكن ان يقال ان المد والجزر برهان ضروري للحركة المزدوجة للارض بدون تحديد قدرته على كل شيء »

وقبل جاليل هذه الشروط ونشر الكتاب سنة ١٦٣٢. ولكن في السنة عينها هاج رجال الدين ومنعوا نشر الكتاب حتى مع وجود هذه الخاتمة التي يكذب فيها جاليل نفسه . وانعقدت محكمة التفتيش سنة ١٦٣٣ وحكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات وان يتلو المزامير السبعة مرة كل اسبوع وان ينكر كل ما قال

اما من حيث الانكار فقد كان جاليل سريع الى انكار مايطلب منه لانه كان يعرف انه بعد إيراد الادلة القوية على صحة نظريته ليس من المهم ان ينكر كل ما يطلب منه . لان الادلة هي سبيل الاقتناع العلمي وهي كلها مثبتة بالكتاب. فهو يتقي غضب الكنيسة باللفظ ولكن يعتمد على التدليل العلمي في الاقناع

نزعة الشك

القرن السابع عشر هو قرن الشك نشأ فيه طائفة من العلماء والفلاسفة ينكرون طرق القدماء ويقولون بالتجربة ويدعون الى الشك في الحقائق المزعومة حتى تجرَّب والا فلا يجوز الايمان بها . وابطال هذه النزعة هم :

بيكون	الذي	وُلد سنة	١٥٦١	ومات	سنة	١٦٢٥
وديكارت	«	«	١٥٩٦	«	«	١٦٥٠
وسبينوزا	«	«	١٦٣٢	«	«	١٦٧٧
وهوبز	«	«	١٥٨٨	«	«	١٦٧٩
ولوك	«	«	١٦٣٢	«	«	١٧٠٤

وكل واحد من هؤلاء جدير بفصل قائم برأسه في كتاب خاص بحرية الفكر . فقد عملوا كلهم لحرية الفكر من التقاليد ومن السلطة . ولكننا سنقنع هنا بالاشارة المختصرة الى كل منهم وما يمتاز به من خدمة الحرية

وأول هؤلاء هو فرانسيس بيكون وهو رجل مثل سميه القديم روجر بيكون انجليزي يقول بوجوب التجربة وعدم الاعتماد على شيء سواها من كتب القدماء . ووضع كتاباً سنة ١٦٢٠ أوضح فيه طريقته الجديدة . ومما قال فيها : « هناك من الأسباب ما يرجينا بان نجد في بطن الطبيعة من الاسرار الكثيرة ما ليس له علاقة أو

مشابهة عما نعرفه مما هو بعيد البعد كله عن خيالنا ومما لم يعرف بعد »

وفي سنة ١٦٢٧ وضع طوبى تخيل فيها أمثل هيئة بشرية تعيش وغايتها الاصلية الاكتشاف والاختراع

ولم يكن بيكون ينزع الى الشك في القدماء فقط وانما كان ينكر كل ما قالوه حتى تؤيده التجربة . وبينما كان علماء القرون الوسطى يقضون أعمارهم في درس القدماء والجدل المنطقي الذي يحوم ويدور حول الالفاظ والفروض كان بيكون يفكر في المستقبل ويضع الطرق التي يجب اتباعها لكي تتقدم العلوم وذلك بأن نذهب الى الطبيعة رأساً ونخطب أسرارها غير مقيدين باية سلطة سوى سلطة التجربة التي تميز الفاسد من الصالح

ويقابل بيكون في انجلترا ديكارت في فرنسا ومن أسماء مؤلفاته تعرف الروح الجديدة التي أخذت تتفشى في عصره وهي روح الشك . فله كتاب يدعى « قواعد لهداية العقل » وآخر يدعى « بحث في الطريقة » وآخر يدعى « مبادىء الفلسفة »

ويبني ديكارت فلسفته على الشك في كل شيء ولا يؤمن ايماناً يقينياً بشيء سوى بالفكر ومن كلماته المأثورة : « اني أفكر فانا لذلك كائن » وهو يشترط لاقامة بناء الفلسفة الجديدة هذه القواعد الاربع :

١ — لا يصح قبول شيء على انه حق ما لم تعرف ماهيته بغاية الوضوح حتى لا يمكن الشك فيه

٢ — تقسيم المسائل الصعبة الى ما يمكن ان تشتمل عليه من الاجزاء ليسهل ادراكها

٣ — يبدأ في الدرس من السهل البسيط الى الصعب المركب

٤ — يستوعب البحث ويستقصي ويعمم النظر حتى تتأكد باننا لم ننس شيئاً

وهذا الكلام يبدو لنا هيناً ليناً ولكنه كان في القرن السابع عشر ناراً وكبريتاً على رجال الدين . وكان من يتهم باعتقاد الديكارتية يعد كافراً لا غش فيه ولم يكن يقل عمن كانوا يتهمون بالداروينية في القرن التاسع عشر . وقد أمضى ديكارت جزءاً كبيراً من حياته في هولندا ولا تعرف علة ذلك وربما كان استحسانه لها يرجع الى كثرة مطابعها وسهولة وسائل النشر منها

على أن اقامته بهولندا وان لم يتعلم لغتها ولا وضع كتابا فيها الا بلغته الاصلية أي الفرنسية قد أفادت فان اكبر حوارييه كان من يهود هولندا . وكان يدعى باروخ سبينوزا

ففي أحد الايام وجدت طائفة اليهود المقيمة بامستردام أن واحداً من أبنائها يجاهر بايمانه بديكارت وبانه لا يؤمن باشياء في التوراة والتلمود . ولم يستطع ربانية الطائفة أن يعاقبوه على ذلك لانهم كانوا قد ارتكبوا جرماً شنيعاً منذ زمن قليل لم يكن قد نسيه بعد أهالي أمستردام . فلم يكونوا يرغبون في اثارة هذه الذكرى . فقد حدث أن أحد اليهود البرتغاليين رحل الى هولندا وابى كبرياؤه أن يخضع للربانية وأن يواظب على الحضور للكنيس فجلده الربانية وأهانه رجال الطائفة . وفعلت هذه الاهانة في نفسه أفاعيلها فانتحر

فلما وجد الربانية أن سبينوزا قد خرج على آباء التوراة والتلمود لم يلجأوا الى العنف في اسكاته خشية أن يتكرر حادث هذا اليهودي البرتغالي ويتسامع أهالي المدينة بما يفعلونه باحرارهم . فتلطفوا وعرضوا

عليه مبلغاً من المال ثمناً لسكوته . فأبى . وقنع الربانية بان لعنوه لعنة أبدية في الكنيس وخلعوه من الطائفة . وحاول أحد المتعصبين أن يغتاله فاخفق . وبقي سبينوزا بامستردام لا يبالي بالتوراة ولا بخناجر الغادرين من أبناء طائفته

وأخيراً لجأ الربانية الى حكومة أمستردام لكي تعاقب سبينوزا لانه لا يكفر باليهودية فقط بل بكل شيء بالله وباليوم الآخر ويعلن شكوكه في أشياء مقدسة يؤمن بها النصارى واليهود معاً . وانعقدت محكمة نصرانية لمحاكمته على هذه التهمة العمومية ولكنها برأته في النهاية وقنعت بأن يغادر المدينة مدة شهرين حتى تهدأ العاصفة

وغادر سبينوزا امستردام وعرضت عليه مناصب للتعليم رفض قبولها لئلا يضطر الى تقييد حريته وارتضى الفقر مع الدرس وأقام في الهاي يصنع العدسات ويبيعها

ومن الصعب أن نلخص في كلمات فلسفة سبينوزا التي وضعها في مجلدات

ولكن يجب أن نقول انها لم تكن من نوع ذلك البحر الطامي الذي فاضت به كتب الجدل اللفظي العقيم حتى كان مثل عمر الخيام يؤثر الخمر عليها ويرى أن السكر الحادث من هذه خير من السخف الذي تقول به تلك المجلدات الضخمة

كان سبينوزا يؤمن بان حدود الاديان أضيق من أن تسع الفكر الانساني وان هذا الكون المؤلف من ملايين النجوم بكواكبها هو وطن الانسان الحقيقي . وان الله متحد بهذا الكون وهو فكرته . وأن حرية المرء لا تتحقق الا بالتخلص من شهواته واتحاده بالله

وفي هذا الوقت عاش هوبز. وهو معلم انجليزي كان يعلم أبناء الاغنياء ويقضي معهم الاشهر العديدة في أوربا لانه كان يجعل الرحلة من شروط التربية . وعرف في رحلاته هـذه جاليل وديكارت وبيكون ونزع نزعتهم كلهم وان كانت العلوم الرياضية تغلب عليه ثم أوفى عليهم بدرسه الفلسفة السياسـية ورأى من اضطهاد طائفة « الطُهريين » في انجلترا ما ألجأه الى أن ينفي نفسه في أوربا احدى عشرة سنة. فقد كان وضع كتاباً في الدفاع عن الملوكية وكانت الملوكية في انجلترا في أسوأ حال اذ كان « الطُهريون » قد قتلوا الملك شارل الاول . وليس يمكن أن نقول ان هوبز دعا الى الحرية الفكرية بل هو دعا بعكس ذلك الى الخضوع لحكم ملك مستبد . وانما أبحاثه في أصل الهيئة الاجتماعية وان الانسان كان يعيش في فوضى وتوحش ثم اتفق النـاس على أن يسلموا السلطة لواحد أو أكثر من واحد لكي يحكمهم ، نقول ان هذه الابحاث فتحت باباً جديداً لتحرير الفكر بالبحث في أصل الحكومات وغاياتها . وقد قبل البلاط الانجليزي هذه الآراء وكافأه عليهـا بمعاش سنوي مدى حياته . ولكن الكنيسة الانجليزية حكمت بتكفيره لآرائه الدينية واتهمته بالالحاد

وثمّ رجل آخر وُلد في عام واحد مع سبينوزا ولكنه أوفى عليه في العمر بسبع وعشرين سنة حتى عاش اربع سنوات من القرن الثامن عشر . وهذا الرجل هو لوك

وُلد لوك في انجلترا ووقع له في احد الايام كتاب هوبز في الدفاع عن الملوكية فقرأه . وكثيراً ما تهدم الكتب الموضوعة في الدفاع عن بعض المبادىء هذه المبادىء نفسها لانها تفتح ابواباً لم

يلجها احد من قبل . وقد يلجها القارىء فتنفتح عينه لاشياء لم تكن مفتوحة لها من قبل ولا يغني عندئذ دفاع المؤلف . فقد نجد فلاحاً ساذجاً يؤمن بالله ايماناً صادقاً يسلم فيه بربوبيته وقدرته وقد تشككه في دينه اذا انت حاولت ان تثبت له وجود الله بطرق المنطق والجدل . وكذلك كانت الحال في كتاب هوبز في الدفاع عن الملوكية فان القارىء يجد ان ان هذا الدفاع يجرّحها اكثر مما يؤيدها

والعادة ان من ينزع الى الجراءة في نقد الحكومة لا يمكنه ان يتخلى عن هذه النزعة في نقد الدين او الهيئة الاجتماعية او الاخلاق او غير ذلك . وقد قرأ لوك وهو طالب في اكسفورد كتاب هوبز عن الملوكية ورأى كيف ان الطهريين قد قتلوا الملك شارل الاول سنة ١٦٤٩ فتساءل هو : اذا كان للناس الحق في ان يخلعوا ملوكهم المستبدين ويقتلوهم ويمحوا استبدادهم فلمَ يرضون باستبداد الكهنة ولمَ لا يختار الناس الاديان التي تقرهم ضمائرهم عليها ؟

ولكن لوك وجد ان الجو لا يلائم هذه النزعة وان رجال الدين يتهامسون بانه ملحد . فرحل الى امستردام ووضع هناك « خطابات عن التسامح » قال فيها انه لا حق للحكومة بان تدخل في ضمير المرء وتملي عليه دينه وانها انما اقيمت برضى الناس واتفاقهم لحماية الافراد وامنهم . وكما انه لا يجوز لها ان تعين ما يأكله الناس وما يشربونه كذلك لا يجوز لها ان تعين لهم المذهب الذي يؤمنون به. وقد كانت اوربا قد تفشت فيها المذاهب . فقال لوك ينتقد اشتغال الحكومات بالاديان ووجوب تركها الناس احراراً :

« اذا كان للحكومة الحق بان تملي على الناس كل ما يختص

بسعادة ارواحهم المستقبلة فان نصف الناس قد حكم عليه منذ الآن بالهلاك الابدي لانه لما كان من المستحيل ان يكون المذهبان صحيحين فمن المعقول ان جميع من ولدوا في ناحية ما سيذهبون الى السماء في حين ان من ولدوا في الناحية الاخرى قد قضي عليهم بالذهاب الى جهنم وبهذه الطريقة يتقرر مصير الانسان ونجاته حسب البقعة الجغرافية التي اتفق ميلاده فيها »

ومنذ ذلك الوقت اخذت الدعوة إلى التسامح تزداد وتقوى ويكون لها دعاة يجاهرون مثل فولتير وتوم پين يستطيعون انكار التقاليد مجاهرين بذلك لا يخشون بطش الحكومات ولا الكهنة

جلالة الملك فولتير

وُلد سنة ١٦٩٤ ومات سنة ١٧٧٨

يحكى عن فولتير أنه قال مرة : « وما عليَّ اذا لم يكن لي صولجان ؟ أليس لي قلم ؟ »

وقد حق لفولتير ان يفاخر بقلمه كما يفاخر الملك بصولجانه لانه اذا كان للملوك مُلك فلفولتير ملكوت . واذا كان لكل ملك رعية مؤلفة من جميع الطبقات فلفولتير رعية راقية مؤلفة من رجال الذهن في جميع انحاء العالم . واذا كانت الملوك تتفاضل بالأثر النافع الذي يتركه حكمها في رعاياها فاي ملك استطاع ان يؤثر في اذهان الناس بمقدار ما أثر وما سيؤثر فيه فولتير ؟

أجل ان هناك ملوكية لا تتبوأ العرش المذهب وتعقد على الرأس الاكليل المرصع . تلك الملوكية تكون بسعة الثقافة التي يشرف صاحبها على العالم ماضيه ومستقبله يرسم له مثله العليا ويوجه خطاه نحوها : فقادة العالم الحقيقيون هم فلاسفته وعلماؤه وادباؤه الذين يرسلون صوتهم الينا عبر القرون فنسمع لهم ونأتمر بامرهم

وفولتير واحد من هؤلاء الملوك تناول صولجانه فألف به نحو سبعين كتاباً كلها في الدفاع عن رعيتــه اي عن رجال الذهن والمفكرين . ولقــد كتب في التاريخ ولــكنه لم يبرز على احد من المؤرخين وكتب في الادب ولـكن بين الادباء من يبذه . ولـكن له

فضلا واحداً وهو انه ارصد قلمه وماله وقوة جسمه الضعيف وجاهه وكل ما يملك في العالم الى اثبات حق كل انسان في الحرية الفكرية والى مكافحة الظلمة والمتعصبين والاغبياء

ولعلك أيها القارىء قد سمعت عن كاتو ذلك الروماني العنيد الذي قضى أكثر من خمسين سنة وهو يصبح ويمسي فيقول للرومانيين : « يجب أن تدمر قرطاجنة » حتى رأى بعينه تدمير قرطاجنة وزالت دولة الفينيقيين التي كانت تخيف رومية . فهذا فولتير قد فعل فعله وقضى عمره وهو يصيح بالعالم الاوربي عامة وبفرنسا خاصة : « اسحقوا أهل الخزي » وأهل الخزي والعار هم الذين يضطهدون الاحرار

والعجب في فولتير هذا انه حارب الكنيسة الكاثوليكية وهدم سلطانها على الاحرار وهو مؤمن شديد الايمان بالله . بل لعل ذلك لم يكن عجيباً . ولم يكن إيمانه إيماناً فلسفياً بل كان إيمان الهوى والعاطفة . حتى انه لما قيل له ان جبال الالب كانت في تاريخها الغابر تحت الماء بدليل اصداف المحار المتحجرة فيها رفض أن يصدق هذا القول لأنه ينافي وجود عناية إلهية ترعى خلائق اليابسة وخلائق الماء . وحدث في حياته زلزال لشبونه ودمرت المدينة فتزعزع إيمانه قليلا ولكن هواه تغلب عليه وعادت اليه عقيدته في الله . وانما كان فولتير يكفر بالخرافات التي ترويها الكتب المقدسة وكان اكباره لله يدعوه الى الكفر بهذه الكتب

وكانت أوربا الشمالية في زمنه قد تحررت من قيود التعصب وخفت فيها وطأة الاضطهاد أو زالت . وزار فولتير انجلترا فرأى

فيها من التساح غير ما يرى في فرنسا وزار أيضاً المانيا واختلط بفردريك الثاني فرأى فيه ملكاً متسامحاً لا يبالي أي دين يؤمن به رعاياه ما داموا يدفعون الضرائب ويلتحقون بالجيش . فعزم على محو التعصب من فرنسا

وكان برنامجه مزدوجاً وهو أن يؤلف الكتب في مكافحة التعصب وان يهيء وسائل الدفاع للمنكوبين الذين يحاكمون من أجل عقائدهم . ونحن هنا سنبدأ بالجزء الاول من هذا البرنامج وسنقصر مهمتنا فيه على نقل أقوال فولتير . قال في كتابه « قبر التعصب » :

« ان من يتلقن دينه بلا فحص يكون كالثور يتقبل النير بلا معارضة »

ويقول في خطاب لولي عهد بروسيا :

« ان الدجاجلة هم وحدهم الذين يجزمون ويقطعون . فاننا لا نعرف شيئاً عن المبادىء الاولى فمن الشطط ان نعين ماهية الله أو الملائكة أو العقول وان نعرف بدقة علة خلق الله للعالم في حين اننا لا نعرف لماذا نرفع ذراعنا كلما شئنا . وليس الشك مما يرتاح له المرء ولكن اليقين مدعاة الضحك والسخرية »

ويقول في كتابه « التساح » :

« لا يحتاج المرء الى براعة فائقة أو فصاحة نادرة لكي يبرهن على لزوم التساح بين المسيحيين بل بين جميع الناس على السواء . وقد تسألني الآن : هل يجب عليّ ان اعتبر التركي أو الصيني أو اليهودي أخاً لي ؟ أقول : اجل . ألسنا كلنا ابناء أب واحد وخلائق رب واحد ؟

« وقد تقول : هؤلاء الناس يحتقروننا ويعتقدون اننا وثنيون أقول : اذا كان الامر كذلك فاني اخطئهم وأظن اني ادهش المسلم أو البوذي وا كسر من شرة عناده اذا أنا قلت لهما ما يلي :

« هذه الكرة التي نعيش عليها ليست سوى نقطة تسير في الفضاء مثل سائر الكرات العديدة الاخرى . . . والانسان الذي يبلغ طوله خمس أقدام انما هو شيء حقير في هذا الكون . وهناك في جنوب افريقيا أو جنوب آسيا انسان لا يكاد يُرى يقف ويقول للناس : اسمعوا ان خالق هذه العوالم قد أوحى اليَّ فعلى هذه الارض نحو ٩٠٠ نملة صغيرة مثلي ولكن ليس عزيز عند الله سوى جحري أما سائر الاجحار فالله يكرهها ولن يكون بينها سعيداً سوى جحري

« وعندئذ يسألونني من هو هذا الابله الذي نطق بهذا الهراء فأقول لهم انهم هم أنفسهم يقولون ذلك . ثم اهدىء غضبهم »

ويقول أيضاً :

« لكي تدعي حكومة ما الحق في أن تعاقب الناس على اغلاطهم يجب أن تتخذ هذه الاغلاط هيئة الجرائم . وهي لن تكون جرائم حتى تحدث القلاقل بين الهيئة الاجتماعية وذلك بأن تؤدي الى التعصب . وعلى ذلك يجب على الناس أن يتجنبوا التعصب لكي يستحقوا التسامح »

وأيضاً : « اذا أنت اصررت على أن الكفر بالدين السائد جريمة فانك بذلك تؤثم المسيحيين الاولين اباءك وتبرر اولئك الذين تنقم منهم اضطهادهم لهم »

ولننظر الآن الى الجزء الآخر من برنامجه وهو الدفاع عن

المنكوبين الذين نزل بهم اضطهاد رجال الدين والحكومات

ففي سنة ١٧٦١ حدث انه كان يقيم في مدينة تولوز رجل بروتستانتي يدعى كالاس له حانوت بالمدينة . وكانت تولوز مشهورة بتعصبها تحتفل بعيد مقتلة سان بارتلوميه كل عام . ومع ذلك استوطنها كالاس هو وعائلته وكان في جراءته هذه متهوراً قد افرط في التفاؤل

وحدث ان أحد ابناء كالاس تمذهب بالكاثوليكية واعلن الاب امام جيرانه انه لا يعارض ابناءه في اختيار أي مذهب يؤمنون به . ثم بعد ذلك حدث حادث آخر اخطر من هذا . وهو انه كان لكالاس ابن آخر يدعى مرقس يبلغ الثامنة والعشرين وكان يرغب في دراسة القانون ولكن البروتستانت كانوا محرومين من هذه الميزة وكان هو بروتستانتياً متحمساً لمذهبه فلم يقدر على النزول عنه والتمذهب بالكاثوليكية كما فعل أخوه . وأدى به هذا الصراع بين مصلحته وبين ضميره ان اختل توازنه الفكري فصار يخرج منفرداً ويسير في الحقول ويتكلم عن الانتحار ويمتدحه . وقد حفظ الاشعار التي يقولها هاملت عندما كان يمتدح الموت فكان ينشدها لنفسه . وفي أحد الايام تعشى مرقس وغادر المنزل . فلم يسأله أحد من اخوته أو والديه الى أين يذهب لانهم تعودوا منه الخروج والسير على انفراد بعد العشاء . ولكن بعد ساعات وجد كالاس ان ابنه قد خنق نفسه بحبل معلق من سقف الباب . وكان قد خلع ملابسه ووضعها قريباً منه وهي مرتبة مطبقة

وكانت العادة أن المنتحر يحرم من صلاة الموتى ويجر على وجهه الى خارج المدينة كي تأكله الوحوش والجوارح . وخشي كالاس

هـذه الفضيحة فوقف هو واعضاء العائلة يتكلمون في كيفية دفن الجثة بدون التعرض لهذا العار . ولـكن أحد الجيران شعر بالحركة وسمع رشاشاً من الـكلام يدل على الحادثة فابلغ الشرطة

وقبض الشرطة على جميع أفراد العائلة وتفشت في البلدة اشاعة مؤداها ان عائلة كالاس قد قتلت الشاب البريء الطاهر مرقس لانه أراد أن يدخل في حظيرة الـكاثوليكية ويفر من رجس البروتستانتية الذي يعيش فيه أبواه واخوته . وأصبح مرقس شهيداً على الرغم منه وحملت جثته وبقيت في قاعة المدينة العمومية ثلاثة أسابيع والناس يزورونها ويترحمون على هذا المسكين الذي ذهب ضحية ايمانه والكل مجمع أن الاب قد خنق الابن مع أن الاب كان عمره ٦٣ سنة وكان عمر الابن ٢٨ سنة

وبعد خمسة اشهر تألفت المحكمة لمحاكمة العائلة وحكمت على كالاس بالتعذيب ثم بتمزيقه على الدولاب . وادخل غرفة التعذيب وعلق بمعصميه من سقف الغرفة حتى صار على ارتفاع متر من الارض ثم جذب الى الارض من رجليـه حتى خرجت رجلاه وذراعاه من محاجرها . وانزل بعد ذلك ثم اجبر على أن يشرب مقداراً كبيراً جداً من الماء حتى صار جسمه ضعفي ما كان قبلا . كل ذلك وهو يُسأله عن الجناية فينـكرها . وأخيراً حمل الى مكان القتل فقطع الجلاد رجليه ويديه . وعندئذ جاءته أبالسة من بني آدم يقال لهم قضاة يسألونه هل ارتكب الجناية فينكر . حتى ضج القضاة من عناده واشاروا على الجلاد بخنقه فاستراح المسكين من شياطين الانس

وكانت املاكه قـد استصفيت وخرجت أرملته لا تجد القوت

واخذ أولاده فوزعوا على الاديار لكي ينشأوا كاثوليكيين وتزداد بذلك رعية البابا

وكان فولتير مقيما بجنيف فسمع بخبرهذه الكارثة التي نزلت باسرة كالاس . فاستقصى وتحرى فوجده صحيحاً بكل فظاعته . فلم يعد يفكر في شيء في هذه الدنيا غير هذه الكارثة

رأى فولتير ان وقوع هذه الكارثة اعتداء على مملكته فقد كان أميناً على حرية الفكر يدافع عنها في جميع أنحاء أوربا . فاخذ يكاتب جميع من لهم نفوذ في فرنسا لاعادة المحاكمة . وحمل الارملة المولهة الى باريس حيث عين لها محامياً مشهوراً وجمع الشهود من الجيران وأنفق من ماله بلا حساب وكاتب ملك انجلترا وامبراطورة روسيا واجبرهما على التبرع بشيء من نفقات هذه الدعوى . ثم التفت الى فرنسا فعبى الرأي العام وجند قلوب الامة بكتاب جمع فيه الادلة التي تبرهن على الظلم الذي وقع بهذه العائلة . ونشره غفلاً من اسم المؤلف

وبعد تسعة أشهر وصوت فولتير تتجاوب اصداؤه القوية في جميع أنحاء أوربا « اسحقوا أهل الخزي » رضيت الحكومة الفرنسية باعادة المحاكمة . ومضى عام آخر نطقت في نهايته المحكمة ببراءة كالاس الذي قتله قضاة تولوز بعد ان أنزلوا بجسمه الضعيف صنوفا من العذاب . وفصل هؤلاء القضاة السفلة من مناصبهم وتضمن الحكم نصيحة خفيفة الملمس لاهل تولوز بان مثل هذا الحادث يجب ألا يتكرر . وبعد ذلك وهب الملك هذه العائلة التي أشقاها التعصب هبة صغيرة من المال

هذه قضية واحدة من أكثر من عشر قضايا تطوع لها فولتير ودافع فيها بقلمه وماله عن المظلومين المضطهدين ومات وهو في الرابعة والثمانين من عمره مهدود القوى قد اقعده المرض والزمه الفراش ومع ذلك كانت له قضية يدافع فيها عن شاب قد اتهم بتحطيم صليب وبحيازة المعجم الفلسفي وبانه لم يركع عند مرور موكب ديني . وكان الشاب قد أحرقته المحكمة وانتهت منه بعد أن قطعت لسانه بالحديد المحمى ثم قطعت ذراعه اليمنى ثم أحرقته هو والمعجم الفلسفي . وهذا المعجم من مؤلفات فولتير . ولكن فولتير نبش القضية وأخذ يعرض تفاصيلها قطعة بعد قطعة أمام الرأي العام الفرنسي حتى يقف الناس على هذا الظلم الصارخ الذي يوقعه الاغبياء بالاذكياء مستعينين في ذلك بالقوانين والظلام

وهكذا انتهت حياة فولتير وهو في ميدان المعمعة بعد ان أبلى أشرف بلاء في سبيل الحرية الفكرية

وهذا الرجل المكافح المقاتل من اجل الحرية كان مع ذلك يندي قلبه بندى المروءة اذا احس بضعيف يتألم أو اذا مدت اليه يد المعدم تطلب الصدقة . فقد ذكرت عنه وكيلة بيته انه غضب مرة من خادمة وامر بطردها . ولهذا الغضب حكاية مضحكة تدل على مزاجه الفرنسي وزهوه . فقد كان عنده عقاب نحيل قد بان عظمه فسمع فولتير الخادمة تقول انه يحسن بهذا العقاب أن يموت لان هزاله قد بلغ منه . وكان فولتير نفسه من حيث نحول الجسم وهزال الاعضاء مومياء مجففة . فوقعت اشارة الخادمة منه وظنها تلمح الى شخصه . فامر بطردها . ولكن وكيلة البيت رفضت واعتمدت في

ذلك على انه اذا سألها عن علة بقاء الخادمة فانها تقول انها طردتها ولكنها لما لم تجد عملا تعيش منه عادت اليهم . وعندئذ يفيض قلب فولتير بما طبع عليه من بر فيسكت لانه لا يطيق ان يسمع ان احداً يقول انه لا يجد ما يقتات به

وحدث انه وقع على خيانة اثنين في منزله ونزل كلاهما على الارض يركعان له حتى يغفرلهما هذا الذنب وهما يرتجفان من العقاب فركع هو في الحال على الارض امامهما وانهضهما وعيناه تفيضان بالدموع وهو يقول لهما ألا يركعا الا لله وحده

أجل . انه يمثل هذا الرجل يتطور الناس

الثورة الفرنسية

أخبر الناس بالثورات وأعرفهم بطبيعتها هم الروس ولذلك يجب أن نعرّف الثورة هنا بقلم احد كتاب الروس الذي يقول عن تجربة واختبار :

« الثورة هي قلب سريع يحدث في سنوات قليلة للمؤسسات التي امتدت جذورها في التربة عدة قرون والتي يبدو لمن ينظر اليها أنها ثابتة لا تتزعزع حتى ان أشد المصلحين حماسة لا يكاد يجسر على مهاجمتها بالكتابة . وهي سقوط وتهدم يحدثان في فترة صغيرة لجميع ما كان يعد الى ذلك الوقت اصلاً لحياة الامة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية »

وهذا التعريف ينطبق على الثورة الفرنسية كل الانطباق وليس من شأننا هنا ان نذكر تاريخ الثورة وانما نحن نمس منها ما له علاقة بحرية الفكر التي هي موضوع هذا الكتاب . ولهذه الثورة ارهاصات أنبأت عنها وكان يمكن الحكيم ان يتوقع الثورة منها لولا غشاوات الطمع والكسل والجهل والجبن التي كانت تحجز نور الحقائق عن عيون الطبقة الحاكمة في فرنسا

فقد قضى فولتير حياته وهو يهدم سلطان التعصب ويشنع على على استبداد الحكومة وظلمها . وقضى روسو حياته وهو يبدي ويعيد في نظرية واحدة وهي ان طبيعة الانسان طيبة وانما أفسدتها

الحكومات والشرائع . وكان مونتسكيو في « روح الشرائع » يدعو الى اصطناع الدستور الانجليزي بدلا من الانظمة الفرنسية البالية . وكان رجال « الموسوعة » لا يفتأون يذكرون في كل حرف من حروف المعجم أساليب الظلم التي تنزل بالناس من أشرافهم وأمرائهم كما يذكرون الاساطير الاولى التي يؤمن بها الناس ويحسبونها من الدين . فكتب هؤلاء الكتاب هي خميرة الثورة التي هيأت لها تربتها وزودتها بما يخصبها

وليست الثورة الفرنسية فرنسية الا بالاسم . أما حقيقتها فعالمية. وأنت أيها القارىء المصري لو قرأت الدستور الذي وضع لمصر منذ نحو أربع سنوات لوجدت عليه مسحة « حقوق الانسان » التي أعلنتها الثورة سنة ١٧٨٩ ووجدت فيه الفاظاً وعبارات تنم على هذا الاصل . وكذلك الحال في سائر دساتير أوربا فانها مشبعة بروح الثورة الفرنسية

وفي الثورة الفرنسية عقل وهوس

أما العقل فهو هذا :

١ً ـ ذهب الرعاع سنة ١٧٨٩ الى سجن الباستيل فهدموه . وكان الناس يسجنون في هذا السجن بلا محاكمة وقد لا يعرفون أحياناً التهمة التي سجنوا من أجلها . وبهدم الباستيل وخنق وكيله انهدم ركن كبير من الاستبداد

٢ً ـ اجتمعت الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩ وأعلنت حقوق الانسان فقضت بذلك على الحكم الافداني (الاقطاعي) . وأهم ما في هذه الحقوق : ١ ـ ان جميع الناس يستوون أمام الشرائع . ٢ ـ لا يمكن

تبرر امتياز فرد على فرد الا لمصلحة المجموع . ٣ ـ لكل فرد ان يشترك بنفسه أو بنائبه في وضع الشرائع . ٤ ـ يجب ان تحمل الاعباء الوطنية بنسبة قدرة الفرد على حملها . ٥ ـ لا يسجن أحد الا بحكم محكمة طبقاً للقوانين . ٦ ـ حرية اختيـار الدين وحرية الخطابة والصحافة من حق كل وطني

أما الهوس فهو هذا :

الغاء التقويم المسيحي وابتداء تقويم جديد من السنة الاولى من الثورة والغاء الاعياد المسيحية وتقسيم الشهر الى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أيام والغاء عبادة الله واختراع عبادة جديدة « لربة الذهن »

وكل هـذا الغلو والشطط يرجع الى ما لاقاه الفرنسيون قبيل الثورة من استبداد رجال الدين والحـكومة

ففي سنة ١٧٩٤ حملت راقصة جميلة الى كنيسة نوتردام وألبست لباساً تشبه فيه ربة الذهن الاغريقية ثم عبدها الباريسيون في مكان أمامها بالـكنيسة سموه « معبد الفلسفة » وكانت النية على أن يقام تمثال لربة الذهن من المرمر ولـكن نوبة الهوس انتهت قبل أن يُشرع في صنع التمثال

ومضى الباريسيون على هذا الهوس نحو ستة أشهر أعلن في نهايتها أي في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ ان الله قد رُدّ باحتفال رسمي الى مكانه في كنيسة نوتردام

ويجب أن نذكر من هوس الثورة أيضاً ان ١٤٠٠ رأس أطاحتها المقصلة بلا ذنب أو بذنوب طفيفة

ولـكن بعد كل ذلك هدأت العاصفة وعرف الناس قيمة التسامح وصار لاحرار الذهن أن يعيشوا ويجاهروا بآرائهم أمام المسيحيين أو اليهود

توماس بين

وُلد توماس بين بانجلترا سنة ١٧٣٧ ومات باميركا سنة ١٨٠٩ ويُعرف بين بكتابين أولهما « الفهم » وثانيهما « عصر العقل » وكلاهما يعمل للحرية الفكرية . فالاول حملة عنيفة على مبدأ الملوكية ودعوة الى الاميركيين لكي ينفصلوا من انجلترا ويؤسسوا جمهورية لا شأن لمبدأ الملوكية الوراثي فيها . وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في الثورة الاميركية . أما الثاني فحملة عنيفة أيضاً على الاديان . وله كتاب ثالث اقل اهمية عنوانه « حقوق الانسان » وضعه في الدفاع عن الثورة الفرنسية وعن المبادىء الجمهورية وقد حاكمته المحاكم الانجليزية لحملته على الملوكية . وهـذه بعض العبارات التي حوكم من اجلها :

« كل حكومة وراثية تكون بطبيعتها هذه ظالمة »

وأيضاً : « لن يكون الوقت بعيداً عند ما تضحك انجلترا من نفسها لاستجلابها واحداً من هولندا أو هانوفر أو زل أو برونزويك (يقصد ملوك انجلترا الاجانب) تنقـده في العام مليون جنيه وهو لا يفهم شرائعها ولا لغتها ولا مصالحها وقد لا يجد من كفايته ما يستطيع ان يؤتمن به على أن يكون شرطياً في احدى القرى »

وقد حكم عليه باهدار دمه ولكنه كان في ذلك الوقت في فرنسا

اما في حملته على الاديان فكان موقفه فيها يشبه موقف فولتير فهو كان يؤمن بالله ولكنه لهذا الايمان نفسه كان يكبره عن أن يكون هو صاحب الاساطير التي تعزى اليه في بعض الكتب . فهو يقول : « عند ما نتأمل عظمة هذا الكائن وهو يتسلط على هذا الكون الهائل الذي لا يكشف منه فهم الانسان الا جزءاً صغيراً نشعر بالخجل عند ما نجد أن قصصاً سخيفة تنسب اليه ويقال عنها انها كلمة الله »

ويمكن أن يقال انه كان يؤمن « بدين الانسانية » أي الدين الفلسفي الذي يؤمن به صاحبه مضطراً بدواعي نفسه لا باوامر سلطة خارجية . وكان يقول ان لهذا الدين عدوين هما الالحاد والتعصب

وفي الوقت الذي قدر فيه الوطنيون الفرنسيون خدمته للثورة وانتخبوه عضواً في الجمعية وهو لا يدري كلمة من الفرنسية سقطت منزلته عند الاميركيين حتى انه عند ما عاد اليهم اجتنبوه واتهموه بالالحاد

القرن التاسع عشر

القرن التاسع عشر هو القرن الذي استقرت ورسخت فيه الحرية الفكرية . فانه وُلد في حجر الثورة الفرنسية التي شرعت تنكر كل التقاليد الدينية وتخترع الآلهة اختراعاً . فلما بلغ منتصف عمره اعلن داروين للناس ان الانسان لم يكن عالياً فسقط بل كان ساقطاً فتطور وارتفع

واتسم القرن التاسع عشر بثلاث نزعات تأيدت بها الحرية الفكرية:

١ً ـ تمرد العمال في جميع الاقطار الاوربية وتفشى بينهم النظر الثوري في أحوال معيشتهم وتعدى هذا النظر أحوال المعيشة الى أحوال الضمير فنزعوا الى الحرية في الدين . ولا تزال الاوساط الاشتراكية للآن ابعد الاوساط غلواً في الحرية الدينية . والعبرة بالنزعة على الدوام فاذا ما نزع المرء الى الحرية في النظر الاقتصادي أو الاجتماعي فانه لا بد نازع أيضاً الى الحرية في النظر الديني

٢ً ـ اقبل العلماء على درس العلوم بشراهة وادمان وكان للبيولوجية أي العلم الخاص بالاحياء وللجيولوجية أي العلم الخاص بتكون قشرة الارض والاحافير أثر خاص في ترويج الحرية الفكرية

٣ً ـ تحول درس كل الكتب المقدسة من الايمان والتسليم الى النقد والتمحيص بمقابلة التواريخ والتنقيب عن الآثار

وفي ما يلي سنلقي نظرة سريعة على حوادث القرن التاسع عشر

التي تمس الحرية الفكرية أو تتعلق بها بادنى علاقة

ففي أوائل القرن نجد ان لابلاس الذي مات سنة ١٨٢٧ يعرض على نابليون نظرية يقول انه يمكن أن يستغني بها عن فرض وجود اله خالق . ولكن نابليون وان كان قد تشبع بروح الثورة الفرنسية فانه عندما رسخت أصول الامبراطورية أصبح ينظر للدين نظر أصحاب الدول والسلطان ولذلك رد لابلاس أقبح رد . ولكن اقتراح لابلاس يدل على الروح التي سرت بين رجال الذهن في فرنسا والتي بعدت بعداً عظيما عما كان سائداً فيها أيام فولتير

وفي سنة ١٨٦٣ الف ليال كتاب « قِدَم الانسان » أوضح فيه ان الانسان قديم يرجع تاريخه الى مئات الالوف من السنين كما تثبت ذلك الجيولوجية . وقد كان ابعد الناس تقديراً لتاريخ الانسان على الارض حسب ما تقوله التوراة لا يبعد اكثر من ٦٠٠٠ سنة

وفي سنة ١٨٥٩ ثم في سنة ١٨٧١ وضع داروين كتابيه عن نظرية التطور الاول في أصل الأنواع والثاني في أصل الانسان . ولم يكن أحد يشك في أن نظر داروين يختلف من النظر الديني اختلافا في الاصول والمبادىء حتى قال الاسقف ولبر فورس : « ان مبدأ الانتخاب الطبيعي يخالف كلمة الله »

وفيلسوف التطور هو بلا شك هربرت سبنسر . فان داروين قصر نظره على تطور الاحياء الذي يؤدي اختلاف الافراد فيها الى ظهور السلالات . ثم يؤدي اختلاف السلالات فيها الى ظهور الأنواع . ولكن سبنسر أخذ النظرية وعممها على العمران والعادات والاخلاق وصبغ عالم المفكرين في أوربا كلها بهذه الصبغة . ومن الحق

أن نقول الآن ان تعميم نظرية التطور انما يرجع الى علماء الانجليز وخاصة الى داروين وسبنسر . وما هو ان عمت النظرية حتى كان علماء آخرون يطبقونها على الديانات نفسها ويرصدون حياتهم للبحث عن أصل السحر والعقائد الدينية القديمة مثل التثليث عند المصريين القدماء وغيرهم ومثل نظرية الفداء وتجسم لحم الآلهة في الغلات الزراعية ونحو ذلك . وكتاب فريزر في هذا الموضوع المسمى « الغصن الذهبي » من أفضل وأعمق نتائج هذا الدرس

وكان لتقدم العلوم البيولوجية أثر كبير في زعزعة العقائد الموروثة لانه ظهر منها أن جسم الانسان بعيد عن الكمال بادي النقص والخلل بما ورثه من أعضاء كانت تنفعه وهو بعد في طور الحيوان واصبحت الآن تؤذيه مثل الزائدة الدودية والقولون وغيرهما حتى قال هلمهولتز العالم الالماني الذي مات سنة ١٨٩٤ عن عين الانسان : « لو ان أحد صناع النظارات ارسلها اليّ باعتبارها آلة لرددتها اليه ووبخته على عدم عنايته بعمله وطلبت منه رد نقودي »

والقرن التاسع عشر حافل باسماء العلماء والفلاسفة الذين حاولوا تفسير الكون بدون الرجوع الى العقائد مثل شوبنهور وكونت وسبنسر . ونظمت في أواخر القرن « جمعية الدهريين » في انجلترا وشرعت تطبع الكتب العلمية والتاريخية ويقال انها قد باعت من مؤلفاتها نحو ثلاثة ملايين نسخة كلها في مقاومة الاديان

وقلما نجد في القرن التاسع عشر حادثة اضطهاد لحرية الفكر تستلفت النظر . فان الحكومات أخذت أمام حملة العلماء تنكف وتزدجر وكانت الاضطهادات السابقة والحروب الدينية لا تزال ماثلة

بنتائجها المرعبة وعظائمها البالغة . ولكننا مع ذلك نسمع عن حادثة لو أنها ذكرت قبل هذا القرن لعدت طفيفة ولكنها كانت خطيرة في وقتها للتقدم الذي أحرزته الحرية الفكرية . ففي سنة ١٨٨٨ انتخب رجل دهري يدعي برادلف عضواً في مجلس العموم البريطاني وكانت العادة ان يقسم بالله يمين الولاء . ولكن برادلف لم يكن يؤمن بالله ورفض ان يقسم هذه اليمين . فحبسه البرلمان ثم الغي انتخابه . فعاد الى دائرته فانتخبته ثانياً فخضع البرلمان عندئذ واذن للدهريين في أن يقسموا اليمين التي يشاءونها

وكانت العادة ان ملوك انجلترا لا يتوجون الا اذا سبوا البابا والكاثوليك فلما ارتقى ادوارد السابع محي هذا السباب من حفلة التتويج . وكان الكاثوليك يحرمون من مناصب الدولة في انجلترا فالغي أيضاً هذا التحريم . وكان الزواج يعقد في الكنائس على أيدي الكهنة ولكن الامم الاوربية قررت اعتباره عقداً مدنياً . وما جاء القرن العشرون حتى أخذت أمم كثيرة تفصل الكنيسة عن الحكومة . وبعضها مثل فرنسا عمد الى الاضطهاد فاستصفى أملاك الكنيسة ومنع التعليم الديني من المدارس

وهذه النزعة لا تزال سائدة . فمنذ سنة أو أكثر فصل مصطفى كمال الدين عن الدولة . ويمكن أن نقول ان العالم كله صائر الى هذه النتيجة والى اعتبار الدين شيئاً خاصاً بضمير الفرد لا يصح للحكومة أن تتدخل فيه

تطور الحرية الفكرية في مصر

النهضة الفكرية الحاضرة في مصر ترجع الى عهد اسماعيل ولا يكاد يكون لها علاقة بنهضة محمد علي . إما لان نهضة محمد علي كانت ناقصة في ذاتها كسقط الاجهاض لم تستقر فيها عوامل النمو قائمة على أفراد من الشركس والاتراك وإما لأن عباس وسعيد قد قطعا الصلة بين نهضة محمد علي وبين نهضة اسماعيل . وسواء أصح هذا أم ذاك فان الواقع اننا نرى أسس النهضة الحاضرة تقام في عهد اسماعيل . ففي عهده ظهرت الصحف . وكان الشيخ محمد عبده والافغاني يتكلمان عن اصلاح الازهر والحكومة

وكلا الرجلين جدير بالذكر في كتابنا هذا . فقد حاول كل منهما أن يوجد اتصالاً بين الشريعة والحكمة . ويبدو من ذكريات رينان المطبوعة ان الافغاني كان ملحداً ولكن الذين عاشروه في مصر يعتقدون غير ذلك . وقد كتب هو نفسه عن نظرية داروين ما يثبت نظره الديني المحض . أما الشيخ محمد عبده فمعروف في مصر بجهاده للحرية وقد حاول اصلاح التعليم الديني وبلغ منه شأواً عظيما وان لم يحقق جميع أغراضه . وكان مما يهم له أن يمسح على المعاني القرآنية روح العصر الحديث فقد فسر مثلا الطير الابابيل المذكورة في سورة الفيل بأنها ميكروبات نزلت بالناس فاحدثت المرض الذي فتك بهم وان السموات السبع هي ضرب من الكواكب ونحو ذلك .

ولقي الشيخ محمد عبده عنتاً عظيما من علماء الازهر لاجتهاده ومخالفته المأثور

ويعد قاسم امين في طليعة العاملين للحرية في مصر . فقد تربى باوربا واشتغل بالقضاء في مصر ثم قابل أحوال العائلة عندنا بما هي عليه في أوربا وعزا ضعف الاخلاق والجهل الفاشي بين الناس وسوء التربية المنزلية الى حجاب المرأة . فدعا الى السفور وانكر ان الاسلام يحتم حجاب المرأة . وقد احدثت دعوته ضجة كبرى بين المصريين ولكن الطبقة الراقية تعرف الآن حكمة هذه الدعوة وتشعر ان كل يوم يمر على المرأة المصرية وهي محجبة هو يوم لا يحسب من حياتها وهو خسارة على الامة بأجمعها . ومن الغريب اننا سبقنا الاتراك الى القول بحرية المرأة وسبقونا هم الى العمل بها فتقدموا وتخلفنا

ومنذ عشرين سنة تقريباً ترجم فرح انطون كتاب رينان عن المسيح واشتبك مع الشيخ محمد عبده في جدال بشأن الحرية الفكرية في الاسلام والنصرانية . وقد انتفع قراء العربية بكلا هذين العملين من حيث استفضر بهما فرح . فان رينان ترجم بحياة المسيح كأنه انسان لا يمتاز من سائر الناس الا بخلقه العظيم وذكائه الحاد ونفسه الوديعة . فكانت هذه الترجمة كشفاً جديداً للقراء وتجرئة على حرية النقد للانبياء والاديان . أما الجدال بشأن الحرية الفكرية فقد سار فيه فرح انطون شوطاً بعيداً في كتابه « ابن رشد وفلسفته » واظهر القراء على الاضطهادات الدينية القديمة سواء من النصرانية أم من الاسلام

وفي السنين الثلاثين أو الاربعين الماضية كان المقتطف يلقي في أذهان القراء نظرية التطور ويبدي ويعيد فيها شهراً بعد شهر حتى أشربت عقول طائفة كبيرة من قرائه بهذه النظرية فتجرأ الناس بذلك على نقد الاساطير

ولما احتلت بريطانيا مصر وجعلت اللورد كروم عميدها فيها استبحرت الحرية الفكرية في البلاد حتى كانت مصر محط المضطهدين من تركيا وموئل أحرارهم . وكان اللورد كروم رجلا مثقفاً بالثقافة الاغريقية يشق على مثله أن يقيد الافكار الحرة . ولكن جاءت بعده طائفة من السياسيين والجنود وكانوا بعيدين عن الثقافة فضيق في عهدهم على الصحف المصرية حتى كانت المجلة العلمية لا يؤذن باصدارها الا بعد تحريات واستقصاءات قد ينتهي عزم صاحبها وهناً وسأماً قبل أن تنتهي الاجراءات الخاصة بالاذن له باصدارها . ولكن حرية الصحف لا تزال مقيدة للآن حتى في عهد الدستور بضروب مختلفة من القيود منها وجوب استصدار رخصة لانشاء جريدة بعد ايداع مبلغ كبير من المال لخزانة الحكومة . ومنها احالة المتهم بمخالفة أو جنحة الى محكمة الجنايات اذا كانت الجريمة صحافية

ومن القيود التي تغل الحرية الفكرية الآن منع تمثيل أي درامة على المسرح ما لم تقرها الحكومة فاذا وجدت أية اشارة تعتقد أنها تخالف ما تحب من آداب أو أديان أو أنظمة منعت الدرامة من التمثيل

ومن حوادث الاضطهاد الديني في مصر نجد أقربها الينا حادثة الشيخ علي عبد الرازق . فقد كان عالما من علماء الازهر وقاضياً شرعياً

فوضع كتاباً عن الخلافة قال فيه انها ليست أصلا من أصول الاسلام وان الخليفة حاكم مدني لا غير فعوقب على هذا الكتاب بتجريده من العالمية وفصله من المحاكم الشرعية . وحدث قبله ان الدكتور منصور فهمي وضع كتابا بالفرنسية عن حياة نبي الاسلام فمنع من التدريس بالجامعة اكثر من سبع سنوات . ومنذ أقل من عام وضع الدكتور طه حسين كتابا عن « الشعر الجاهلي » خالف فيه العقائد الشائعة فحاول العلماء أن يمثلوا معه الفصل الذي مثلوه مع الاستاذ علي عبد الرازق

وقد خدمت مصر الحرية الفكرية في الشرق كله بمطبوعاتها وصحفها ونبغ فيها كتاب يدعون الى حرية البحث في الدين والعلم والادب وربما كان ابعدهم أثراً في ذلك منذ بدء النهضة الى الآن شبلي شميل وفرح أنطون . فان الاول كان يجاهر بكفره ويسطو على رجال الدين متسلحاً بنظرية التطور . وكان الثاني أديباً له مدخل لطيف الى قلوب الشباب كتب عن نيتشه وعن الثورة الفرنسية وعن المسيح باعتباره رجلا وعن الاضطهاد الديني وكان في تجديده للادب العربي جريئاً مقداماً يشق الميادين الجديدة ولولا أنه دخل في غمار السياسة ودار في أعصارها لانتفع به الادب العربي كثيراً

تبرير الحرية الفكرية

لا يبرر الحرية الفكرية سوى منفعتها

ولا يبرر تدخل الحكومة ومنعها للناس من حرية التفكير سوى حقها في الدفاع عن النفس وحماية الجمهور من أذى مباشر. أما اذا كان الاذى مقدراً في المستقبل البعيد فليس يصح للحكومة ان تتدخل فليس للحكومة مثلا أن تمنع خطيباً يتكلم عن فوائد الشيوعية وافضليتها للنظم الحاضرة ونحو ذلك ولا يمكنها أن تعتمد في منعه على أن لهذا الكلام أثراً في اذهان السامعين قد يدعوهم الى الهياج في يوم ما ولكن لها أن تتدخل اذا وقف هذا الخطيب ودعا الناس الى الثورة على الاغنياء وطردهم من دورهم والاستيلاء على أملاكهم. لانه في الحالة الاولى يشرح نظاماً ويقابله بالنظام الراهن ويقول بافضليته عليه ولكنه لا يحض الجمهور على التسلح ومفاجأة الناس بالثورة. واذا كانوا هم قد اقتنعوا بصحة النظام الجديد الذي شرحه لهم وفساد نظامهم فلهم من برلمانهم باب لتحقيق هذا النظام ولا يمكن ان يحمل الخطيب تبعة هياجهم. اما في الحالة الثانية فالدعوة الى الهياج صريحة والجمهور ينقاد الى الخطيب المهيج ويستأنس بالفاظه العالية كما يستأنس القاتل بسيفه. فهو هنا مسئول عن الهياج والحكومة مطالبة بمنعه

ويشق علينا أن نميز بين الحالات التي يؤدي فيها التفكير الحر

الى الهياج المباشر الصحيح وبين تلك الحالات الاخرى التي لا يؤدي فيها الى ذلك . ولنضرب عدة أمثلة

فهناك مثلا خطيبان يترشحان للنيابة عن دائرة انتخابية في البرلمان . احدهما له كثرة ساحقة فهما خطب واسرف وطغى في خطابته لا يجد من يناقضه . ولكن منافسه له قلة صغيرة جداً فاذا نطق بكلمة عدت كفراً وأثارت حوله ضجة وهياجاً . ففي هذه الحالة نجد انه وان كانت كلمات هذا الخطيب تحدث هياجا الا أننا نرى الحكومة مطالبة بحمايته هو ومنع الهائجين من هياجهم لانه انما يتكلم عن قلة ولهذه القلة الحق في شرح آرائها والذود عنها وان كان في هذا اغضاب عظيم للكثرة

وهناك مثلا درامة تمثل على المسرح يشرح أحد أشخاصها مساوىء نظام الزواج الراهن أو حجاب المرأة أو نحو ذلك . وقد يستثير بمناظره هياجاً بين النظارة . ولكن الحكومة مطالبة مع ذلك بمنع الهائجين والزامهم السكوت وليست مطالبة بمنع التمثيل

ففي كلتا الحالتين نجد هياجاً مباشراً أساسه خطبة المترشح للنيابة وأقوال الممثلين . ولكن هذا الهياج غير قائم على أساس صحيح لان الجمهور الهائج ناقص التربية . يجب تأديبه والزامه السكوت حتى لا تستبد الكثرة بالقلة . ويمكن أن يقال لذلك الجاهل الذي لا يستطيع ضبط نفسه اذا سمع خطبة منافية لآرائه أو رأى درامة تمثل لا توافق هوى نفسه : خفف عنك ورفه ولا تعن بالذهاب الى دار التمثيل أو الى حيث تسمع تلك الخطبة التي تكرهها

وليس ينكر ان للحرية الفكرية مضار ولكن ليس شيء في العالم

تجنى منه فائدة دون ان يكون له ضرر . وضررها هذا لايمنع الناس من الانتفاع بها . فقد يقف خطيب مفتون مهوس يعتقد أن الوحي قد نزل عليه وان قيام الساعة قد أزف فيحمل الناس على ترك أعمالهم بل على الانتحار تعجلا للساعة . وقد يطيعه بعض المفتونين في ذلك وقد فعل المهدي السوداني شيئاً شبيهاً بهذا وجعل من السودان جحيما اكثر من عشر سنوات . ولكن هذه حالات شاذة اذا تفاقمت ورأت الخاصة في الامة ان الاذى واضح لجأت عادة الى ما تلجأ اليه عند غارة أحد الامراض الوافدة كالكوليرا بوقف الشرائع واعلان الاحكام العسكرية

وانما استقر المفكرون على ضرورة الحرية الفكرية وعلى ضرورة التسامح في ما يحدث منها من الاضرار ما دامت هذه الاضرار غير فادحة لانه ثبت ان هناك آراء منع الناس من القول بها كانت صحيحة وكان المانعون انفسهم هم المخطئين . وهذا هو المعقول لان السلطة التي تمنع الناس من البحث في رأي ما مؤلفة من أشخاص معرضين للخطأ ليس احد منهم معصوم منه . وثبت أيضاً أن العلوم والفنون التي تملصت من قيود الحرية تقدمت وأثمرت كما نرى الآن في الكيمياء والطبيعة والطب والميكانيكيات . فان تقدم الصناعة انما يعزى الى تقدم هذه العلوم كما ان رقي الحضارة نفسها يرجع اليها . وقد يكون هناك مجال للشكوى من سرعة تقدم هذه العلوم لا من تأخرها ولكن العلوم العمرانية والاخلاقية والشرعية والدينية كلها لا تزال متأخرة لان الناس ليسوا أحراراً في الكلام عنها ومناقشتها . فنحن اذا قابلنا علم الكيمياء اليوم بما كان عليه ايام سليمان الحكيم لوجدنا

فرقاً هائلا يكاد يكون كالفرق بين الطفل الذي يلعب بالنار وبين معارف مهندس يدير قاطرة . ولكن الفرق بيننا وبين سليمان الحكيم في الآراء الدينية او الاخلاقية او حتى العمرانية لا يزال صغيراً جداً او قد لا يكون هناك فرق اصلا

﴿ تم ﴾

فهرست